كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر

ISBN: 978-9922-612-26-3

مقالات وتعليقات في الصحف والمجلات

تأليف
الاستاذ الدكتور علي زوين
عميد كلية الكوت الجامعة

2020

اسـم الكتاب : مقالات وتعليقات في الصحف والمجلات

تأليـف : الاستاذ الدكتور علي زوين
عميد كلية الكوت الجامعة

جنـس الكتاب : دراسات ادبية

المطبعـة : مطبعة الرفاه / بغداد

سـنة الطبـع : ٢٠٢٠

الناشـر : مركز البحوث والدراسات والنشر
كلية الكوت الجامعة

تصميم الغلاف : رائد مهند امير

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
١٩٦٤ لسنة ٢٠٢٠

مطبعة الرفاه
07902823204

المحتويات

توطئة 1
كتب في الظل ... بعد كتب المطامير 2
تعليق على نقد..4
(لغة الضاد) أو (كلام العرب)..14
معاد الى الظاء والضاد...22
الورق وضعته في التراث 29
العقل والذكاء في تراثنا الثقافي..39
علم (المصطلح) في التراث 47
تعقيب على رأي 58
العربية بين الاختصاص وغير الاختصاص 58
كلمة ((يوبيل)) بين التعريب والدلالة 64
(النخلة) في تراثنا اللغوي والثقافي 68
آداب الدرس والتدريس في تراثنا الثقافي 75
العربية والمصطلح الدلالي 83
(العربية) والسلامة اللغوية 93
الزراعة و (علم الفلاحة) في التراث 99
المسعودي : المؤرخ الجغرافي الرحالة..108
الخلاف حول المعربات في القرآن الكريم واللغة العربية.......................115
الشيخ الوائلي ومدرسة المنبر الحسيني...119
كلمة في (العرفان)...123
كتاب إنباط المياه الخفية للحاسب الكرخي...125
مسائل دلالية في كتاب (الخاطِريّات) لإبن جني 130
في القرآن الكريم والكتاب المقدس ألفاظ ما وراء الطبيعة 136
كمال الانسان في القرآن 143
الإنسان (عنوان للإبداع الخلقي)...143
الإنسان والإنسانية...146
الانسان خليفة اللّه في الأرض 160

توطئة

في هذا الكتيب مجموع ما نشر لي من المقالات والتعليقات والردود في بعض الصحف والمجلات وفيه أيضاً بعض ما نشر عني فيها .

وقد ذكرت أسم الصحيفة أو المجلة في مطلع العنوان من تاريخ النشر والعدد المنشور ، أرجو أن يكون في ذلك نفع لمن أراد النفع والفائدة لمن أراد الاستفادة . وأفيد علماً أن الموضوعات المنشورة ذات صلة بالقضايا والمسائل اللغوية والثقافية ، ورتبت بحسب تسلسلها التأريخي في النشر .

كتب في الظل ... بعد كتب المطامير[1]

بعث الينا الدكتور حمود حمادي ، رسالة يثني فيها على ما كتبناه حول جهود الاستاذ اسماعيل السعدي ، في إحياء الكتب العراقية (المطمورة) التي يبحث عنها ويرممها ويصورها ، ومن ثم يوزعها بين أفراد أسرة آل السعدي ، وبين الأصدقاء والمعارف والمعنيين بكتب التراث ، وهي الكتب المطبوعة بمطبعة الرشيد والمطبعة المصطفوية (في بومبي) في سنة 1902 و 1907 ، ومنها (سبائك العسجد في اخبار احمد ، والجوهر المنضد في تخميس همزية محمد (ص) ، وديوان الشيخ كاظم الأزري ، وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) ، وكان آخر ما نشرناه عن هذه الكتب في يوم 22\11\1987 .

يقول الدكتور حمادي في رسالته أن الدكتور علي زوين ، وهو من المحققين الفضلاء والمهتمين بتراثنا العربي الاسلامي ، وقد حقق حتى الآن عدداً من الرسائل والكتب ، انتقاها من بين مئات المخطوطات النادرة ، الا أنها بعد طبعها بقيت في الظل ، قلّما سأل عنها سائل ، وذكرها ذاكر في الصحافة أو التلفزة ، ضمن زوايا ((اصدارات)) ومن تلك الرسائل :

1- رسالة في صناعة الحبر (تحقيق ودراسة – بغداد 1986) ، بدأها بأسماء الحبر في معجمات اللغة العربية ، التي تدل على معان عديدة

[1] جريدة العراق في 2\12\1987

يجمعها (الحسن والسرور والنعمة ، وكل ما هو حسن من خط أو كلام او شعر) اضافة الى المعنى الأصلي . ثم يتطرق المؤلف الى المواد التي تدخل في صناعة الحبر ، منها ما هو نباتي ومنها ما هو معدني ، والآخر من أصل حيواني ، وخلص الى قول أحد الخطاطين : ((شيئان لا يتم للمواد الصانعة للحبر الا بهما : العسل والصبر ! الأول يحفظه من الجفاف والثاني يمنع الذباب من النزول عليه !)) ، ثم يتحدث عن الدواة من حيث مادتها ، وطولها وقصرها وهيئتها .. الخ .. وهذه المخطوطة – التي لم يذكر لنا اسم صاحبها – من خزانة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في بغداد .

2- رسالتان في مصطلح الحديث – في كتاب واحد – رسالة في أصول الحديث للشريف الجرجاني ، ورسالة في (المختصر في علم الأثر) لمحيي الدين الكافيجي (دار الرشيد – الرياض 1978) وهذه المخطوطة من خزانة الأوقاف أيضاً .

3- معجم مصطلحات توثيق الحديث – كما يقول المؤلف – من العلوم الشرعية الرئيسية ، وهو المفتاح لفهم الحديث النبوي الشريف ، والتمييز بين صحيحه وحسنه وضعيفه ، ثم يعدد المؤلف كتب مصطلح الحديث ، والأصول ، والمصطلح الدلالي ، والمعجم مرتب حسب الحروف الأبجدية .

ويتساءل الدكتور حمادي في آخر رسالته عن أهمية احياء كتب التراث ، اذا كان مصيرها العودة الى الادراج والأقبية والقماطر و (المطامير) ايضاً ؟

تعليق على نقد[2]

نشرت مجلة الرسالة الاسلامية في عددها (204) الصادر في حزيران عام 1987 (مقالاً) في قسمها المخصص بالتعريف بالكتب المطبوعة على حساب وزارة الأوقاف بقلم الدكتور محيي هلال سرحان الاستاذ المساعد في كلية الشريعة بجامعة بغداد تناول فيه بالتعريف والنقد كتاب الفرق بين الحروف الخمسة لابن السيد البطليوسي . وهو كتاب أتممت تحقيقه في عام 1976 جزءاً من رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وطبع على حساب وزارة الأوقاف العراقية عام 1985 بمطبعة العاني .

وكنت أود الاستفادة مما ذكره الناقد الفاضل لأدخل تعديلات وتصويبات على الكتاب كما يفعل الآخرون ولكني وجدت نفسي خلاف ما كنت أود بعد اطلاعي على (المقال) المذكور للأسباب التي سأبينها مفصلاً ، وللفائدة العلمية المتوخاة من نشر النصوص وتحقيقها وأسوة بالعرف المتبع في نشر (النقد) ونشر (الرد) عليه في الصحف والمجلات المعنية رجوت من مجلة الرسالة الاسلامية نشر تعليقاتي لكي يكون القارئ على بينة من أمره فيما يعني هذا الكتاب ، الا أن المجلة المذكورة عزفت عن نشرها لأسباب خفيت عني علماً بأن الناقد الفاضل عضو في هيئة تحريرها

---

[2] جريدة العراق في 1\2\1988

!! لذلك وجهت وجهي صوب جريدة العراق راجياً منها نشر هذه التعليقات مشكورة .

هذا (المقال) الطويل الذي بلغ عشراً من الصفحات والذي لم تألفه المجلة من قبل في قسمها المخصص بالتعريف بالكتب التراثية مردود لثلاثة اعتبارات أساسية مستفادة من كلام الناقد نفسه ، وهي :

1- آراء وتعقيبات شخصية بحتة تفتقر الى سند علمي .
2- تصويبات كثيرة ظن أنها كذلك وتبين خلافها .
3- تدليس يوهم القارئ بأنه قد أطلع على النسخة المعتمدة .

ولكي أدلل على الأمور المذكورة بالشواهد المعتبرة أكتفي بالموارد الآتية :

1- في الصفحة 134 من المجلة ذكر الناقد أنه أحصى (1038) مادة لغوية في الكتاب بلغت مع ما يشتق منها (3375) كلمة، وقال:((مع تأكدي من اغفال بعضها)) فمن أين له هذا (التأكد) ؟ ولم لم يذكر لنا ما تأكد له إغفاله لكي نكون على بينة ؟
2- اعترض الناقد على عنوان الكتاب المثبت على الغلاف ، وخلاصة الكلام أن العنوان المثبت على أول صفحة من النص المحقق هو (الفرق بين الحروف الخمسة وهي الظاء والضاد والذال والسين والصاد) ، أما العنوان المثبت على غلاف الكتاب فهو (الفرق بين الحروف الخمسة) ، وأشار الناقد الى هذا العنوان على الغلاف ((يوقع المطلع في لبس من المقصود بذلك)) . ونسأل الناقد الفاضل

أي لبس في ذلك ؟ ومتى كان المطلعون على الكتب يكتفون بقراءة أغلفتها فقط ؟ وفات الناقد أن اختصار العناوين أمر مألوف قديماً لدى كبار العلماء والمحققين ، وما نقله السيوطي في (المزهر) من الكتاب أشار اليه في مختلف المواضع بعبارة (كتاب الفرق) أو (كتاب الفرق بين الأحرف الخمسة) . وكذلك فعل الزبيدي حيث أشار اليه بعبارة (كتاب الفرق) أو (الفرق) ، ولا ضير من اختصار العنوان على غلاف الكتاب مادام مثبتاً في متنه .

3- أشار الناقد في كثير من بنوده الى مجموعة من السقط والغلط الطباعي الواضح الذي لا يخفى على المبتدئ فكيف بالقارئ المطلع ، وهي آفة نعاني منها جميعاً سببها بعض المطابع التي تستخدم آلات أمست بدائية في عصرنا وتفتقر الى خبرة في تنفيذ تصحيحات المؤلفين . ولا أحسب كتاباً يخلو من مثل هذه الأغلاط ، ولا أحسب الناقد الكريم خلواً من ذلك أيضاً الا من عصمه الله ! وعلى القارئ أن يراجع البنود الآتية : 2 ، 4 ، 6 ، 7 ، 8 (وقد أخطأ الناقد في هذا البند حيث لم ترد لفظة (اضطرار) كما ادعى) ، 11 ، 13 ، 25 ، 27 ، 28 ، 29 ، 30 .

4- ذكر الناقد في ص 137 من المجلة أنه قابل الصفحات المائة الاولى من النص المحقق بطبعة عبد الله الناصير . واستدرك (31) موضعاً محيلاً الى الأصل المعتمد أي نسخة فاس ، ثم قال في ص (140) من المجلة : ((ظهر من الحالات المذكورة آنفاً ومن غيرها مما لم أذكره خشية التطويل أن المحقق – وان ادعى في المقدمة أنه اعتمد نسخة

فاس أصلاً في التحقيق - لم يلتزم بألفاظ نسخة فاس بل اختار نسخة راغب باشا وجعلها هي الأصل في التحقيق وثبتها في المتن دون الاشارة الى ذلك)). وكنت أود أن أعثر على ما يقوم كلامه – وأمامي نسخة فاس – معتقداً أن الناقد الفاضل قد اطلع عليها ، فاذا به قد اعتمد طبعة الناصير مدلساً على القارئ اطلاعه على نسخة فاس كما في البنود المذكورة في مقاله ، فوقع في ما وقع فيه الناصير ، وأراد أن يصحح فأخطأ في ما ظنه صواباً مع ما للتدليس في مثل هذه الأمور من مجانبة للصواب وللاعتبارات العلمية . وعلى القارئ المنصف ان يحكم بعد اطلاعه على ما سأذكره من المدعي الناقد أو المحقق ؟

5- قال الناقد : ((وردت في السطر السادس من الصفحة 107 لفظة (ودرب به) ولم يشر المحقق الى أن النسخة الثانية قد وردت فيها لفظة (وعري) بدلاً عنها)) . التعليق : وهم الناقد ، فقد وردت عبارة (ودرب به) في النسخة الثانية وليست في الأولى كما يدعي ، أما عبارة (وعري به) فقد وردت في النسخة الأولى مضببة أي عليها علامة كالصاد الممدودة – وتسمى اصطلاحاً بالتضبيب أو التمريض – وهي تعني أن العبارة ليست صحيحة في النقل عن الأصل وانما الصحيح : (درب به) ، وهذا من أساليب القدماء في تصحيح الكتب بعد مراجعتها على أصولها . وللفائدة أذكر العبارة بتمامها : قال ابن السيد : ((والعظب – ايضاً – مصدر عظب على

الأمر اذا لزمه ودرب به ...)) ولا أظن واهماً يتوهم للعبارة معنىً اذا قرأها على النحو الآتي : ((... اذا لزمه وعري به)) .

6- البند رقم (3) : قال الناقد : ((ورد في السطر السادس من الصفحة 110 قوله (عن ابن دريد) وصوابه (عن أبي يزيد) كما في الأمالي 152/1)) . التعليق : كلام ابن السيد واضح فقد ذكر في كلمة (زوفن) بالزاي أو (دوفن) بالدال روايتين عن ابن دريد لا عن أبي زيد . ولو كلف الناقد الكريم نفسه ورجع الى كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص 317 بتحقيق عبد السلام هارون) لوجد أنه ثبتها بالدال أي (دوفن) . وما ورد في الأمالي (1 / 15 طبع دار الكتب) لا يفيد هذا المعنى وان أفاد رواية الزاي أي (زوفن) عن أبي زيد : فالكلام كله – أذن – عن أبن دريد والروايتين المرويتين عنه في هذه الكلمة ، وهو أمر يحتاج الى دقة وعدم تسرع في تغيير النص دون مبرر علماً بأن كلا النسختين قد وردت فيهما الكلمة عينها .

7- البند رقم (5) : قال الناقد : ((وردت في السطر 12 من الصفحة 114 لفظة (والشدة) وصوابها (والشد) كما في الأصل المعتمد لديه ، وبينهما فرق كبير)) التعليق : الصحيح أنه وردت في كلا النسختين عبارة (والشدة) وهي الصواب ، والظاهر أن الناقد أو من نقل عنه لم يألف رسم العبارة كما وقعت في نسخة فاس بالخط المغربي وهو دليل على عدم اطلاعه على هذه النسخة والاكتفاء بما ذكره الناصير .

8- البند رقم (9) : ذكر الناقد بعض العبارات الساقطة من النسخة الثانية، ومنها قوله ((والشوم ايضاً أبل سود)) حيث ادعى أنها

مثبتة في النسخة الاولى . والصحيح أنها غير مثبتة في النسخة الاولى ، بل الذي ورد هو قوله ((والشوم ههنا ...)) وبعد عبارة (ههنا) طمس . وهذا ايضاً من جملة الأوهام التي وقع فيها الناقد الفاضل ، بل أوقعه فيها الناصير .

9- البند رقم (10) : قال الناقد : ((في السطر الرابع من الصفحة 119)) وردت العبارة (أي امنعه منه) كما في نسخة راغب باشا ، وصوابها كما في النسخة التي عدها المحقق أصلاً (عنه) أي (أمنعه عنه) .

التعليق : أخطأ الناقد لأن عبارة (أمنعه عنه) مضببة في نسخة فاس ومعنى ذلك ان الصحيح هو (امنعه منه) . وللناقد أن يراجع معجمات اللغة كاللسان وله أن يراجع – مثلاً – كتاب معجم الأفعال المتعدية بحرف لموسى بن محمد (طبع دار العلم للملايين – بيروت ص 356) ليتبين له أن الاستعمالين صحيحان . وتقتضي قواعد التحقيق تثبيت ما صحح من الألفاظ في النسخة المعتمدة ولاسيما الموافقة منها للنسخ الاخرى.

10- البند رقم (12) : قال الناقد : ((في السطر الأول والثاني من الصفحة 125 ورد قوله (قبل وقته) وهو ما ورد في نسخة راغب باشا ، وصوابه كما ورد في الأصل الذي اعتمده المحقق (قبل وقوعه) ...))

التعليق : لو اطلع الناقد على نسخة فاس لوجد فيها سقطاً من أول مادة (المظرة والمضرة والمذرة) الى قوله (وما كان معناه) في آخر مادة (الظنين والضنين والذنين) . وقد أشرت الى ذلك في

مقدمة التحقيق وفي الهامش رقم (2) من صفحة 124 لأنه سقط كبير يصل الى صفحتين أو أكثر من الأصل المخطوط ، وينبغي على المحقق في مثل هذه الحالات أن يتلافى السقط من النسخه الأخرى ، لذلك فأن ما ادعاه الناقد من التصوييب لا أصل له .

11- البند رقم (14) : قال الناقد : ((في السطر الخامس من الصفحة 126 ورد قوله (من الجنة) وما ورد في الأصل المعتمد هو (من الجن) ...)) .

التعليق : هذه المادة من جملة المواد الساقطة من نسخة فاس . والجنة والجن بمعنىً واحد .

12- البند رقم (15) : قال الناقد : ((في السطر 12 من الصفحة نفسها ورد قوله (وقد نذرت به) كما في الأصل المعتمد (وقد نذرت به بكسر الذال) .

التعليق : هذه المادة من المواد الساقطة في نسخة فاس .

13- البند رقم (16) : ذكر الناقد الفاضل أن تداخلاً وقع في بعض المواد، وأن مادة وهي (الظفر والضفر والذفر) لم تنته . ويقترح تقديماً وتأخيراً في هذه المواد؟! بعد أن عد ذلك سهواً من المحقق .

التعليق :

أ- لم يحصل تداخل في المواد ، وهي على ترتيبها الصحيح التام ، وأن مادة (الظفر... الخ) التي ذكر أنها غير منتهية هي منتهية وواضحة .

ب- إن تغيير كلمة من موضعها في نص محقق دون مبرر علمي يقتضي ذلك لأمر ينافي أبسط قواعد التحقيق ، فكيف بتغيير ألفاظ ومواد لغوية تقع في صفحتين من المطبوعة من غير مبرر !

ت- إن (السهو) الذي ادعاه على المحقق قد وقع فيه المؤلف أيضاً، ولا أفهم معنىً لهذا (السهو) سوى أن الناقد الكريم (أعجبه) أن يقدم مادة لغوية منفصلة تماماً عن مادة لغوية اخرى ، وهذا يشبه قول القائل : ان المؤلف الفلاني قد سها لأنه يحب العنب ، والناقد لا يرضيه الا الحصرم .

14- البند رقم (17) : قال الناقد : ((في السطر الثامن من الصفحة 127 ورد قوله (المعان الذي فيه الحجارة) وشـرح المحقـق لفظـة (المعان) في الهامش الرابع من الصفحة نفسها . وصوابه (المكان الذي فيه الحجارة) كما ورد في الأصل الخطي الذي اعتمده المحقق . ويحذف التعليق ويشار فيه الى أنها وردت في نسخة راغب باشا بلفظة (المعان) وهو تصحيف)) .

التعليق :

1- هذه المادة من المواد الساقطة من نسخة فاس ، ولم ترد في الأصل المعتمد كما ادعى الناقد .

2- (المعان) ليست تحريفاً ، وانما المعان : المباءة والمنزل كما ورد في اللسان (298/17) . والمباءة والمنزل بمعنى المكان أيضاً . ولما كانت نسخة راغب باشا هي المعتمدة أصلاً في المواضع التي حدث فيها سقط من نسخة فاس ، فالأولى أن تثبت

الكلمة كما هي ولا يجوز – منهجياً – تثبيت مرادفها أو ما هو قريب من معناها . وبذلك ينتفي ما قاله الناقد في هذا البند .

15- البند رقم (19) : قال الناقد : ((السطر 6 – 7 من الصفحة 130 وردت العبارة (ما سال من الأنف ومن ...) وصوابها (ما سال من الأنف وكذلك ما سال من ...) كما في أصله المعتمد .

التعليق : هذه أيضاً من المواد الساقطة من نسخة فاس .

16- البند رقم (21) : قال الناقد ((السطر الأول من الصفحة 137 ورد قوله (لا تصيبه) ولعل صوابه (ولا تصيبه) بزيادة واو .

التعليق : عبارة (ولا تصيبه) بالواو هي عبارة عن نسخة راغب باشا كما أشرت الى ذلك في المطبوعة ص 137 هامش رقم (1) . أما نسخة فاس فقد وردت فيها عبارة (لا تصيبه) من غير واو ، وقد ثبتها لأنها واردة في الأصل المعتمد وصحيحة . ولا أدري لماذا تغافل الناقد في هذا الموضع وهو الحريص على تثبيت ما في الأصل ؟! ولا أفهم معنى لقوله : ولعل صوابه ...)) !

17- البند رقم (22) : قال الناقد ((السطر 12 من الصفحة 142 وردت لفظة (الناشز) وهي في الأصل المعتمد (الناشزة) ...)) .

التعليق : ان كلام الناقد الفاضل هو العكس تماماً ، فالذي ورد في الأصل المعتمد هو عبارة (الناشز) . أما عبارة (الناشزة) فقد وردت في النسخة الثانية . وقد أشرت الى ذلك في المطبوعة ص 142 هامش رقم (2) . وتثبيت ما في الأصل هو الصحيح الموافق للعرف اللغوي (انظر : اللسان 7 / 285 طبع بولاق) .

18- البند رقم (31) : قال الناقد : ((السطر السادس من الصفحة 183 ورد قوله (فوضى فضا) وصوابه (فوضى وفضا) بزيادة حرف الواو بين اللفظتين)) .

التعليق : أخطأ الناقد في تصويبه . والصواب أن يقال (فوضى فضا) من غير واو بين الكلمتين كما ورد في نسخة فاس . ورواية نسخة راغب باشا (فوضى وفضا) بواو بين الكلمتين ، وهي غير صحيحة وقد أشرت الى ذلك في ص 183 هامش رقم (3) . والشواهد على صحة ما أقول كثيرة وللقارئ أن يراجع اللسان (9/ 75) . وقد نص الفراء على ذلك في كتابه المنقوص والممدود (ص 23 طبع دار المعارف – القاهرة) .

ومما تقدم ظهر لنا أن الناقد الفاضل قد أغفل جوانب كثيرة من النسخة المطبوعة – عمداً أو سهواً - واختار ما ظن فيه الخطأ ، ثم أخطأ في معظم تصويباته . ويبدو أن لديه رغبة شديدة وقديمة في تحقيق هذا الكتاب ، وأن الطبعات الثلاث التي ظهرت منه لم تعجبه ما يجعل – والعبارة له – ((أمر تحقيق الكتاب مرة رابعة ضربة لازب)). ونحن نتمنى للناقد الفاضل التوفيق لاخراج الكتاب وتحقيقه مرة رابعة ، بل مرات ، كما نتمنى لغيره كذلك . وليست المخطوطات حكراً على أحد ولكننا نخشى عليه بعد تحقيقه إياه أن يحتاج الى (ضربة لازب خامسة) .

وبعد فإنني أشكر الناقد على ما بينه من الجهد المبذول في تحقيق الكتاب و أشكره على ما أفادني في بعض ملحوظاته .

وأسأل الله تعالى أن يعيننا على ما يرضاه منا إنه ولي التوفيق .

(لغة الضاد) أو (كلام العرب)[3]

نشرت جريدة العراق (الغراء) في عددها الصادر يوم 1988/3/23 مقالاً للاستاذ الدكتور كامل مصطفى الشيبي بعنوان : (العربية أهي لغة الضاد أم لغة الظاء ؟) بين فيه استاذنا الفاضل أوجهاً تأريخية من الحرفين المذكورين وانتهى الى ما ارتآه من تسمية العربية (لغة الظاء) بدلاً من تسميتها (لغة الضاد) لأسباب ذكرها في مواضعها . وحث الباحثين الى ابداء الرأي حول هذه المقولة سلباً أو ايجاباً . ولست أريد في ما دعا اليه الدكتور الشيبي الانتصار له أو عليه ولكنني رأيت من المفيد ابداء بعض الملحوظات من باب التعقيب وليس من باب الاستدراك تتمة للفائدة وتوضيحاً لبعض الامور المتعلقة بتراث الضاد والظاء في العربية . واليك البيان :

1- الظاء الفصيحة : بين الذال والظاء علاقة صوتية من حيث المخرج ، فمخرجهما واحد عند المتقدمين وهو : ((مما بين طرف اللسان وأطراف العليا)) وهذا قريب من وصف المحدثين لهما وجعلهما من الحروف الأسنانية .

والذال كما دلت عليها التجارب الصوتية الحديثة تتكون بأن يندفع الهواء معاً ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ثم يتخذ الهواء مجراه في الحلق والفم حتى يصل الى مخرج الصوت وهو ما بين

[3] جريدة العراق **1988/5/11**

طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، وهناك يضيق هذا المجرى فنسمع نوعاً قوياً من الحفيف .

وتتكون الظاء بالكيفية التي تتكون بها الذال الا أن اللسان في نطق الظاء يرتفع مؤخره تجاه أقصى الحنك (سقف الفم) ويرجع قليلاً الى الخلف ليحدث الإطباق (تفخيم الصوت في نطق الحروف) .

والفرق بين الصوتين هو حدوث الاطباق، وكأن الذال ظاء مرققة، وهو اشتراك من جانب آخر بين الذال والظاء ، فالعلاقة الصوتية تتعدى المخرج الى الصفة .

2- الضاد الفصيحة : مخرج الضاد عند سيبويه واللغويين ((من بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس)) . إن شئت أخرجتها من الجانب الأيمن أو من الجانب الأيسر .

والنطق بالضاد كما نفهمه من سيبويه يتم بأن الهواء الخارج من الرئتين يتخذ أحد جانبي الفم (الأيمن أو الأيسر) في حين تتصل أول حافة اللسان (من الجانبين أيضاً) بالأضراس التي تليها فتضيق المسافة ما بين حافة اللسان والأضراس فيحتك الهواء الخارج نتيجة لهذا التضييق على أن يكون الجهر (= تذبذب الأوتار الصوتية حين النطق بالحرف) واضحاً .

3- اسئلة تدور في أذهان الباحثين :

هل وجدت الضاد في العربية الموغلة في القدم ؟ وكيف كانت تنطق ؟ وهل وجدت على نحو آخر من وصف سيبويه لها في القرن الثاني الهجري ؟ وكيف تطورت ؟ وهل عرفت في اللغات السامية

الأخرى أو اقتصرت على العربية ؟ وهل عرفت في كل اللهجات العربية القديمة ؟ واللهجات التي لم تعرف الضاد هل انتفت من حروفها ابتداءً ؟ أو اندثرت بعد مراحل تأريخية وتطورات صوتية؟

هذه الأسئلة وغيرها استوقفت الباحثين للنظر في هذا الحرف ، وقديما قال ابن جني في كتابه (سر صناعة الاعراب ص 222) :

((وأعلم أن الضاد للعرب خاصة ولا يوجد من كلام العجم الا في القليل)) . ولم يذكر لنا هذا القليل وفي أية لغة .

والمعروف أن حرف الضاد من خصائص العربية . أما تخصيص العربية بأنها لغة الضاد فأغلب الظن أنه لم يكن معروفاً في الصدر الاسلامي الأول ، ولا في القرن الثاني الهجري . وانما بدأ هذا التخصيص فيما بعد ، ولا يمكن أن نفترض بدء التخصيص في القرن الرابع الهجري بعد تأليف الصاحب بن عباد كتابه (الفرق بين الضاد والظاء) وأنه شاع (أي التخصيص) في بغداد أولاً للتمييز بين العرب والأعاجم كما ذهب الى ذلك ابراهيم أنيس (الأصوات اللغوية ص 57) لسبب واحد هو أن كثيراً من الرسائل والكتب المؤلفة في الضاد والظاء لم تنشر الى الآن (أنظر ثبت بعض ما ألف في هذا الباب في مقدمة الدكتور رمضان عبد التواب لكتاب ابن الأنباري الموسوم بزينة الفضلاء : ص 22 وما بعدها الى ص 35) . وبعضها قد ألف قبل كتاب الصاحب بن عباد . وليس لنا أن نحكم بأولية التخصيص الا بعد نشر هذه الرسائل والاطلاع عليها .

4- الضاد في العربية الحديثة : إن صوت الضاد الفصيحة اخذ يختفي في القرون الهجرية المتأخرة حتى اختفى تماماً وما نسمعه الآن عند الناطقين باللغة العربية ما هو الا أصوات مختلفة كل الاختلاف عن الضاد القديمة التي وصفها سيبويه . ويعود السبب في ذلك الى صعوبة النطق بالضاد واختلاط نطقها بالظاء والدال المفخمة والزاي المفخمة وغيرها ويخفى على غير المدقق تمييز صوتها من صوت الظاء خاصة ، ولذلك كثر الالتباس بينها وبين الظاء نطقاً وكتابة .

ومن الملاحظ على معظم اللهجات العربية الحديثة (اللهجات العامية أو لغة العامة كما تعرف في الاصطلاح) انها تنطق الضاد على الأوجه الآتية علماً بأن نطقها الفصيح في هذه اللهجات لا يبتعد كثيراً عن نطقها العامي :

أ- المصريون وبعض السوريين ينطقونها دالاً مفخمة فهي عبارة عن صوت أسناني لثوي انفجاري (شديد) مجهور مفخم ((ينطق بأن تلتصق مقدمة اللسان باللثة والأسنان العليا التصاقاً يمنع مرور الهواء الخارج من الرئتين كما ترتفع اللهاة (= اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم) والجزء الخلفي من سقف الحلق ليسد التجويف الأنفي في الوقت الذي تتذبذب فيه الأوتار الصوتية وترتفع مؤخرة اللسان قليلاً نحو الطبق (= مؤخر سقف الفم) ثم تزال هذه السدود فجأة فيندفع الهواء المحبوس الى الخارج)) .

ب- ان بعض السوريين والمغاربة ينطق الضاد مثل الظاء . وتنطق عند ناس آخرين كالدال أو الطاء ، وتنطق قريبة من الظاء أو دالاً مفخمة أو دالاً عادية أو لاماً مفخمة . ويكثر نطقها اليوم دالاً مفخمة ، ووفاقاً لذلك صورت كتابتها بالحروف اللاتينية .

ت- تنطق الضاد في بوادي الشام والأردن وشبه جزيرة العرب ظاءً وفي بيروت ودمشق وطنجة وتونس دالاً مفخمة . وتنطق في بعض أنحاء ليبيا زاياً مفخمة .

ث- يخلط بعض التونسيين بين الضاد والظاء فينطقون الضاد قريبة من الظاء .

ج- ان النطق بالضاد كأنها لام مفخمة ينتشر في لهجات منطقة ظفار (= في اليمن) كما يوجد في منطقة ديتنة بجنوب بلاد العرب ، وفي لهجات الجزيرة بالسودان .

ح- تنطق الضاد في معظم اللهجات العراقية ظاءً ولاسيما اللهجات الوسطى والجنوبية.

5- ان تخصيص لغة ما بأداء وحدة من وحداتها الصوتية (= الحروف) هو من قبيل التعميم الدلالي (= تعميم المعنى الخاص) لغايات ، منها : انفراد اللغة بتلك الوحدة الصوتية (= الحرف) ، أو صعوبة أدائها على غير الناطقين بها ، أو شيوع الوحدة الصوتية من حيث الاستعمال ، أو اقترانها بظاهرة حضارية معينة ، أو وضوح النطق بها لدى المتكلمين باللغة وصعوبة ذلك على غير الناطقين بها ... الخ . وقريب من بعض ما ذكرناه ما يروى عن الرسول (ص) وهو قوله

: ((إني أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش ... الخ)) . وهذا الحديث – ان صح – لا يدل على تخصيص العربية بلغة الضاد وانما ينصرف الى وضوح النطق بالضاد . وهو دليل على أن صعوبة النطق بها أمر قديم ، وأن تعثر النطق بها واختفاءها من لهجات عربية كثيرة يعود الى تطور صوتي قديم حدث لصوت الضاد . ولا يخفى على المعنيين من الباحثين في علم اللغة العام ان التطور الصوتي باختفاء وحدات صوتية أو بتحولها الى وحدات اخرى ليس وليد سنة أو سنتين وانما الأمر فيه يعد بعشرات السنين بل بمئاتها .

6- ان العربية تميزت (بأصوات الإطباق) الاربعة وهي : الصاد والضاد والطاء والظاء. ومعنى تمييزها ان هذه الحروف تؤدى من مخارجها المعروفة مقترنة بظاهرة الاطباق وهي ارتفاع مؤخر اللسان نحو الطبق وهو سقف الفم ، وهذا أمر يصعب على غير الناطقين بالعربية وربما على كثير من الناطقين بها ، ويصح لذلك أن يقال من باب التخصيص – مثلاً – (لغة الصاد) أو (لغة الطاء) يضاف الى قولهم (لغة الضاد) .

7- ومن خصائص العربية ايضاً ما يسمى (بالأصوات الطبقية) وهي الحروف التي تؤدى باتصال مؤخر اللسان بسقف الفم أي أن نطقها يتم من الطبق . وتختلف هذه عن (اصوات الاطباق) التي تقدم ذكرها لأنها أصوات تخرج من حيز آخر غير الطبق وظاهرة استعلاء مؤخر اللسان فيها لا ترتبط بمخارجها . والاصوات الطبقية في العربية هي : الخاء والغين والقاف . وأمرها ليس باليسير على الناطقين بغير

العربية لذلك يصح أيضاً أن توصف العربية بهذه الأصوات فيقال – مثلاً – (لغة الخاء) أو (لغة الغين) أو (لغة القاف) .

8- تعليقاً على ما أفاده الدكتور الشيبي من قلة استعمال الظاء في الكلم العربي وجعله من قلة الاستعمال سبباً داعياً الى استخدام (لغة الظاء) للدلالة على العربية بدلاً من (لغة الضاد) . أقول : ان قلة استعمال حرف ما لا تكون سبباً علمياً للتخصيص لأن قلة الاستعمال تعود الى ظاهرة تدعى في علم اللغة الحديث (بالحمل الوظيفي) Functional Load يتبين للباحث من خلالها الاسباب الموجبة لكثرة استعمال الحروف أو قلة استعمالها في لغة ما . ويعني الحمل الوظيفي اذا اريد تطبيقه على الوحدات الصوتية مدى التقابل بين وحدتين صوتيتين في كلمتين متماثلين صوتياً مختلفتين دلالياً مثل (سرب) و (صرب) و (درب) و (ذرب) ، فالكلمات التي يرد فيها هذا التقابل اكثر يقال إن لعنصريهما حملاً وظيفياً اكثر ، أما الكلمات التي يقل فيها هذا التقابل فيقال إن لعنصريهما حملاً وظيفياً أقل . وفي العربية أمثلة لذلك واضحة منها السين والصاد فإن لهما حملاً وظيفياً أكثر من الذال والظاء لأن المقابلات بين السين والصاد أكثر بكثير من المقابلات بين الذال والظاء . وتفيد هذه الظاهرة ان العناصر ذات الحمل الوظيفي الأكثر تقاوم الاختفاء والاضمحلال في التطور الصوتي للغة على حين تكون العناصر ذات الحمل الوظيفي الأقل عرضة للاضمحلال والاختفاء . والظاء من العناصر ذات الحمل

الوظيفي القليل في العربية لذلك كانت الكلمات من ذوات الظاء في العربية قليلة .

9- ان كان التخصيص بالضاد يفيد معنى (التمييز) من باقي اللغات ، وان كان في الأمر جدوى من حيث المعايير العلمية للدرس اللغوي – ولا أظن ذلك – فالأولى أن تخصص العربية – مثلاً – بحرف ما زال يؤدى قريباً من نطقه الفصيح بشروطه التي تميز العربية حقاً من باقي اللغات الحية المعاصرة ، فتكون بذلك حروف الاطباق الأربعة هي المرشحة باستثناء (الضاد) لأنها اختفت من النطق تماماً منذ قرون، والاولى من الأربعة جميعاً حرف (الظاء) كما اقترح الدكتور الشيبي . وان كان لي أن ابدي رأياً فمن المفيد للعربية أن تبقى مخصصة بنفسها أو بأهم ظاهرة حضارية فيها فيقال – مثلاً – (لغة العرب) أو (كلام العرب) أو (لغة القرآن) .

هذا ما أردت الاشارة اليه بخصوص الضاد والظاء والتخصيص بهما . ولعلي بلغت بعض الحقيقة راجياً أن يكون النفع الأكثر من باقي اخواننا الذين لهم الرغبة في التعليق على هذا الموضوع .

معاد الى الظاء والضاد[4]

1- أسعد ما يكون الكاتب مقروءاً ، وأجدى ما يكون عمله مفيداً مكرراً بين الأبصار والأسماع والبصائر ، متداولاً بين بني صنفه وجنسه ومعرفته ، وقد رضيت نفسي بما تركته كلمتي ، التي أذاعتها لي عراقنا الزاهرة في 1988/3/23 ، بعنوان ((العربية : أهي لغة الضاد أم لغة الظاء)) ، ومن اهتمام مكتوم ومعلوم ، مهموس به ومفصح عنه ، سلباً وايجاباً – ولا بأس . وكان من دلائل هذا الاهتمام ظهور تعليقين عليه كتب احدهما الاستاذ فرات الجواهري في فقرة من فقرات زاويته ((أوراق)) التي يحررها في الجمهورية ونشرتها له في يوم 1988/4/14، وكتب الآخر الاستاذ عمر زاده الله ويردي (= ابن عمر عطاء الله) تحت عنوان ((تعليق على بحث)) ونشرته له عراقنا يوم 1988/5/4 ، وفي رأيي أن ثمة بقية من تعاليق تأتي بعد – إن بقي في الوقت فسحة كما انتهت به الأخبار . أما الاستاذ فرات الجوهري فقد ذكر في مقدمة فقرته تلك قوله : ((والتبريرات كانت مقبولة ومعقولة ومنطقية)) وأشار بعد ، الى أن ((الأجانب يستطيعون ، بسهولة ويسر ، الهروب من (نطق) الضاد الى ما يشبه الدال ، وبإمكانهم تحويل : تضامن الى ما يشبه : تدامن و : اضافة الى ما يشبه ادافة ، ولكنهم لا يستطيعون بأي حال من

---

[4] العراق في 1988/6/1

الأحوال الهروب من خصوصية الظاء العربية ، فهم لا بد واقعون – أعاجماً (أعاجم) أو متعاجمين – في كمين الزاء (= الزاي) ، فينطقون الظالم : زالماً ، والنظرة : نزرة ، والظلال : زلالاً ، وهم يقعون في هذا الكمين مكرهين ، لا كما تقع فيه الذال عن كسل وقلة اكتراث)) .

وأما الاستاذ عمر زاده الله ويردي فقد أخذ عليّ في تعليقه أنني ذكرت تداول التركمان والانكليز لحرف الضاد في نطقهم كلمات ((ضيزه)) و ((داضي)) التركمانيتين ((Dull)) و ((Dudlly)) الانكليزيتين بغير بينة من كتاب أو قاموس وما سواهما . وقد فرش تعليقاته تلك على تسع فقرات قصار واضحة رقيقة دقيقة مفهومة تفيض أدباً وحسن تأتٍّ وسعة اطلاع يشكر عليها ويشار اليها ، وحبذا لو احتذي حذوها وتؤسي بها .

ومع أن كثيراً من الزملاء والقراء والمحررين يعلمون أنني لست ممن يميلون الى الجعجعة مع الطحن أو بغيره ولا الأخذ والرد والطي والنشر ، رأيت أن اعقب على كلمة الاستاذ عمر زاده تحية له وبياناً للمنهج الذي اتبعه في كلماتي الصحفية التي اوجهها الى جمهرة القراء سواداً وبياضاً مع محاولة الارتفاع الى مستوى المتخصصين لئلا تكون صيحة في واد أو قبض ريح أو نفخاً في رماد – والعياذ بالله!.

وفيما يتصل بالتعرض لخصوصيات التركمان والانكليز والمصريين فالحق أنني نطقت بكلماتهم ومواضعاتهم عن ملابسة

للأوائل أكثر من ربع قرن بالصهر ومدارسة للثانين أكثر من أربعة أعوام بالدراسة والبحث ومعايشة للآخرين أكثر من عشرة أعوام بالصورة نفسها ، كل هذا مع فضول واعجاب وإعمال للقلب العقول واللسان السؤول . و ((ضيزه)) و ((داض)) (أو ضاض ضي أو داد دي كما يريد الزميل الكريم) من افادات تركمان كركوك الذين يعللون تفنيده باختلاف اللهجة بين نطق المقيمين في مركز المدينة واخوانهم المقيمين في قلعتها ولعل أخانا المعلق منهم ، وهؤلاء يمدون الكلمات ويوضحون الأصوات بما لا يدع مجالاً لاختلاط صوت بصوت ومن هنا يتبدد الشبه وتصفو اللهجة من الضاد وغيره . هذا ما يقول مركزيو كركوك – والعهدة على القائل – ويصفو أننا أبرأنا ذمتنا ولم نسق الكلام على عواهنه .

وأما كلمة ((Duddly)) الانكليزية ، فعلم من الأعلام يطلق على العقلاء فيها ولا يمكن البحث عنه في المعاجم وانما يعرف بالمخالطة والسماع ، وتكتشف أصوات حروفه وطريقة نطقه بالآذان ، وقد تلقيناه من الأفواه وجرت به مسلسلات وقد ميزه سمعنا فوجد داليه مخرجين على صوت الضاد وقريبين من مخرجه الحديث ، وأما كلمة ((Dull)) فسماعها من انكليزي فصيح مواجهة أو سماعاً من مذياع وما في حكمه ، يخلف في الاذن رنة الضاد ، وهذا أيضاً لا يرد في قاموس ، سواءً أكان صغيراً أم كبيراً ، لأن النص على الضاد ، مثلاً، ليس شيئاً يفطن اليه اللغوي الانكليزي ولا يخطر له على بال كما يقضي المنطق والواقع ، وكيف يفطن اليه وهذا الحرف ليس من

حروف الانكليزية وانما أغرنا نحن عليه من باب السماع ومن طرف خفي بل أخفى ؟!

وبصرف النظر عن هذا كله ، لم ندع أن حرف الضاد من الحروف المكتوبة في التركمانية (وان ذكر المعلق أنه وجدها كذلك في مراجع ذكرها) ولا الانكليزية بل قلنا بالحرف الواحد : ((فعلى هذا الأساس، من النطق المسهل ، نجد الضاد قيد الاستعمال عند غيرنا ــ وان لم يكن لها رسم خاص ، بوصفها حرفاً مستقلاً : فمن أمثال ذلك قول اخواننا التركمان : ضيزه ... ونجد هذا الحرف منطوقاً به في الانكليزية على النسق الذي أشرنا اليه ...)) . فكلامنا منصب على النطق لا الكتابة ، واشارتنا موجهة الى امكان تداول الضاد باللسان غير العربي بتحويله الى دال مفخمة قريبة منه على عكس الظاء التي لا تحتمل هذا التقريب وانما يتأدى الأمر الى أن يحاد بها الى حرف الزاي . وقد أسعفنا ، بالأمثلة الخفيفة الدم الاستاذ فرات الجواهري في فقرته التي تضمنتها كلمته المشار اليها في أول هذه السطور ، وفق الله الجميع الى ما فيه الخير .

ونشرت (أثيرتنا) العراق في 1988/5/11 ملحوظات وتعقيبات للأخ الدكتور علي زوين بعنوان ((لغة الضاد أو كلام العرب)) ضمنها كثيراً من الفوائد اللغوية العلمية فعلاً وانتهى ، بعد ، الى أنه ((من المفيد للعربية أن تبقى مخصصة بنفسها أو بأهم ظاهرة حضارية فيها فيقال ــ مثلاً ــ (لغة العرب) أو (كلام العرب) أو (لغة القرآن) ولم يوافقنا على ان مبدأ الصعوبة في النطق والندرة في

الاستعمال في ما يتصل بالظاء عندنا ، كما كان مبدأ الصعوبة في نطق الضاد عند غيرنا ممن ناقشناهم ، مسوّغ كاف لرفع راية احداهما على مضارب لغتنا الفذة ، وذلك شأن من حقه أن يسوغه ويحتج له كما يشاء – وقد فعل – لكننا لم نجده وافياً بغرضنا ولا مدعاة الى تحولنا عن رأينا الذي توصلنا اليه على هدي الدلائل التي بسطناها . وفقه الله ورعاه .

على ان أهم فضيلة للدكتور علي تحرره الجميل من غلبة الهوى وطمأنينة نفسه عند المناقشة وعرضه العلمي المتسلسل للقضايا الفيلولوجية الخاصة بنطق الحروف العربية وتجمعها ، وايقاف القراء على شؤون حديثة في نطق الحروف في أقطار عربية شتى من نحو مصر وسوريا والمغرب والجزيرة والسودان . شكر الله سعيه .

ومع أن هؤلاء الاخوان الثلاثة صدروا عن ضمائرهم وتلقائيتهم ، يطيب لنا أن نسعد بنتائج أقلامهم بوصفها ثمرة طيبة للعقل الرزين والتوجه الحضاري الى شؤون العلم ومباعدة الانفجارات النفسية والنوبات العصبية والأساليب القبلية !

2- واذا بلغ بنا الأمر الى هذا الموضوع يطيب لنا أن نعزز حداثة وصف العربية بلغة الضاد بايراد شاهدين من كلام المرحومين الأب أنستاس الكرملي (= بطرس بن جبرائيل يوسف عواد 1283 – 1366 هـ / 1866 – 1947 م) ومعروف الرصافي (بن عبد الغني الجباري البغدادي ، 1294 – 1364 هـ / 1877 – 1945 م) ، فقد ألمّ الأول

بهذا الواف في مقال له نشره في مجلته ((لغة العرب)) (الجزء : 4 ، آذار 1927م ، ص 503) فقال فيـه : ((على أن هناك رجالات (من العرب) كانوا قبل الدين (الاسلامي) الحنيف ، اشتهروا بفكرهم ودرايتهم ودربتهم وحنكتهم ، الا أن الناطقين بالضاد لم يذكروهم لأنهم لم يدونوا تواريخهم ، أو لعلهم دونوها ولم تصل الينا)) .

وأما الرصافي ، شاعر العرب الكبير ، فقد ضمن عبارة ((لغة الضاد)) قصيدة له قديمة بعنوان ((بداعة لا خلاعة)) أولها قوله :

مثلت في دلالها عريانـــــــــــــة

فأرتني محاسنا فتانـــــــــــــة

ومنها قوله :

ثم قالت – وقد ذوت مقلتاهـــــــــــا

وشكت من فؤادها خفقانـــــــــــه - :

اطعن الطاعنين للضاد بالـــــــــــــ

ــضاد قد أنطق الاله لسانـــــــه

كما في ديوانه (بجمع وتحقيق المرحوم الاستاذ مصطفى علي ، بغداد 1986 ، 267/4 – 275) ، ودعونا من شرح معنى الضاد الاولى !

3- ومما يوثق ظائية العربية ان المجتمعات العربية التي تميل الى تسهيل النطق بالأصوات وتيسير الحروف الجزلة – كما لعله يمكن أن يقال – وتكسل عن اخراجها من مواضعها الحقيقية لأسباب

مركبة، كالمصريين والشوام مثلاً عبثت بالحروف المشار اليها التي يشق على الأعاجم نطقها أيضاً ، فحورت وحولتها عن مخارجها وهكذا وجدنا الذال تنطق زاياً خفيفة ، والثاء سيناً ، والقاف همزة ، والظاء زاياً مفخمة أو ثقيلة ، لكنها ثبتت على الظاء ولم تغيرها لسهولة النطق بها أو لسبق تحويرها بتقريبها الى الدال في نطقها الثقيل المفخم . من هنا يبدو حرف الظاء هو الأندر والأعز وهو حامل خاتم اللغة العربية لا الضاد التي تبدو حقيقتها غير ظاهرها.

4- على ان مما ينبغي أن يشار اليه هنا ايضاً رجحان انفراد العربية بحروف اخر لا ينطقها غيرهم كالعين والحاء والصاد والغين والهمزة الى جانب كونها لغة الضاد والظاء .

ومن الطريف ذكره أن كاتب هذه السطور شهد فرقة مسرحية هزلية جوالة في لندن فكان من عروضها الغنائية الراقصة عرض يسخر فيه من العرب والعربية -قبحهم الله – فلم يجدوا ما يسخرون به لفظاً الا ترديدهم لكلمات لا معنى لها مليئة بأصوات العين ، فكأنهم فعلوا ذلك لإحساسهم بأن هذا الحرف هو المميز للغتنا . ومع تمشي هذا الكلام مع المنطق والواقع يظل حرف الظاء عندنا ، حامل الطابع المميز للعربية لأنه الأندر في الاستعمال والأشق في النطق والأخص بالعربية والعروبة . ومع ان ((النادر لا حكم له)) في كثير من المواضيع ، نجده هنا صاحب الحكم والراية والغاية .

ونأمل أن نسمع المزيد .

الورق وضعته في التراث[5]

للورق أهمية بالغة في الحضارة الانسانية ، فهو سجل الحضارة وشجرتها التي تمدها بالعلوم والمعارف والفنون والآداب وما انطوت عليه تجارب الامم والشعوب من أفراحها وأشجانها وتطورها وتخلفها ، يضاف الى ذلك حصيلة تجارب الفرد لكونه جزءاً من المجتمع .

هذا الى جانب ما للورق من شأن جليل وخطير في تدوين الوثائق والسجلات الرسمية ، وما له من دور بارز في حياة الناس اليومية من المكاتبات والمراسلات ورفع الظلامات والحاجات والعقود في البيع والشراء والرهن والضمان والوكالة والمشاركة والقرض والاستئجار الى غيرها من أنواع المعاملات وأقسام المكاتبات .

ومنذ أن اخترع الأوربيون الطباعة في القرون الوسطى عظمت أهمية الورق وإتسعت صناعته لتلبية حاجات الناس المختلفة ، وكثر انتاجه بظهور الصحف والمجلات اليومية والاسبوعية والشهرية والنشرات السنوية . ولما كان الورق يرتبط دائماً في ذهن الانسان بالكتاب غزت الكتب الأسواق غزواً لم يشهد له التاريخ مثيلاً ، فلم يقتصر الكتاب على فئة معينة من البشر يستنسخ لهم ، وحلت محل سوق الوراقة سوق اخرى هي سوق الطباعة والنشر ، وتطورت بتطور العلوم العملية وانتقلت الطباعة من طباعة

---

(5) جريدة العراق (3787) في 2 / تموز / 1988 .

بالحروف الى طباعة بالتصوير مما هو معروف لدى المعنيين . وبعد فأين نحن من الورق ؟ أو كيف انتقل الينا هذا التراث الضخم المشهود له بالثراء والعمق واتساع المجال ؟ أو ليست الورقة هي التي نقلت لنا هذا التراث ؟ فما قصتها ؟ وكيف كان حال الورق في تراثنا ؟ وكيف كانت صنعته ؟

هذا ما سأفيده في هذا المقال الميسر . وأبدأ ببعض المصطلحات :

قيل في معنى الورق أنه اسم جنس يقع على القليل والكثير . واحده : ورقة ، وجمعه : أوراق ، وجمع الورقة : ورقات . ونطق القرآن الكريم بتسميته (قرطاساً) و (صحيفة) . ويسمى الورق أيضاً : (الكاغد) . ويقال للصحيفة أيضاً : (طرس) ، ويجمع على (طروس) ، و (مهرق) ويجمع على (مهارق) . وهذا ما أفاده القلقشندي في كتابه الموسوعي : (صبح الأعشى في صناعة الانشا : جـ 2 / ص487) . وهو أضخم كتاب في التراث العربي يعنى بالخط والكتابة ويقع في عدة مجلدات .

وأصل القرطاس كاغد يتخذ من بردى مصر فهو مصنوع من البردى . وبقي شائع الاستعمال الى القرن الرابع الهجري كما سنلاحظ .

وقيل في (المهرق) أنه في الأصل قطعة من نسيج أبيض تسقى الصمغ وتصقل ثم يكتب فيها . (أمين ناصر الدين : الرافد ص 50) .

وللورق صفات جيدة و رديئة شأنه شأن أي سلعة اخرى في السوق يتخير فيها المشتري أجودها . قال القلقشندي في صفة الورق الجيد (صبح الأعشى : 487/2 طبع دار الكتب) : ((وأحسن الورق ما كان ناصع البياض ... صقيلاً متناسب الأطراف صبوراً على مرور الزمان)) .

وكان للكتّاب آداب في الكتابة على الورق من حيث البدء والمسطرة (= اعتدال اسطر الخطوط) وترك الهوامش والحواشي ... الخ .

ومنها أنهم كرهوا استعمال ظهور الورق في الكتابة ، ومن العلل الطريفة لذلك ما نقله الصولي في كتابة (أدب الكتاب ص 149) من أن ظهور الورق ((تفسد النيات وتذيع الأسرار بما في باطنها وتشعث الخطوط (= أي تفسدها من حيث النظم والترتيب والوضوح) ... وتحقّر من قدر المعنى ...)) .

وعرفت للورق أصناف مختلفة من حيث الجودة في الصنعة ، من أهمها ما ذكره صاحب صبح الأعشى (487/2 ، 488) :

1- البغدادي : وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب اجزاء . وكان غالباً ما يستعمل في كتابة المصاحف الشريفة . وربما استعمله كتّاب الانشاء في المكاتبات السلطانية (= المكاتبات الرسمية) .

2- الشامي : وهو دون البغدادي في الجودة . ومنه ما يعرف بالحموي (= نسبة الى حماة) .

3- المصري : وهو دون الشامي في الرتبة . وعرف منه نوعان : (المنصوري) وقطعه (= مساحة الورقة) أكبر وقلما يصقل وجهاه جميعاً ، و (العادة) وقطعه أصغر من المنصوري . وفيه ما يصقل وجهاه ويسمى في عرف الوراقين (المصلوح) . ومن المصري صنف يعرف (القوي) وهو صغير القطع خشن غليظ لا ينتفع به في الكتابة . وأشار القلقشندي الى أنه كان يتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك .

4- ورق أهل المغرب والفرنجـة : وهو أردأ أنواع الورق ، قيل عنه أنه (سريع البلى قليل المكث) لذلك كانت المصاحف تكتب عند أهل المغرب في الرّق .

وكانت للورق مقادير في القطع تختلف من شأن الى آخر . والمنظور في ذلك المرسل اليه من حيث الرتبة والمنزلة . واصطلحوا على الورقة الكاملة (بالطّومار) ، وهي المعبر عنها في نهاية القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع (بالفرخة) . ويذكر عن محمد بن عمر المدائني في كتابه القلم والدواة أنه كان يكتب للخلفاء من أوائل الدولة الأموية في قرطاس من ثلثي الطومـار ، والى الامـراء من نصف طومار، والى العمـال (= الولاة) والكتّاب من ثلث، والى التجار وأشباههم من ربع، والى الحسّاب والمسّاح (= مسّاح الأرض : الذين يقومون مساحتها وينظرون وفقاً لذلك في مقادير الخراج ونحوه) من سدس .

وذكر لنا القلقشندي (صبح الأعشى : 6 / 190 ، 191 ، 192) مقادير قطع الورق المستعمل في ديوان الانشاء بالديار المصرية الى أوائل القرن التاسع الهجري . وهي تسعة مقادير نلخصها فيما يأتي :

1- قطع البغدادي الكامل : عرضه ذراع بذراع القماش المصري . وطوله ذراع ونصف بالذراع المذكور . وفيه كانت تكتب عهود الخلفاء وبيعاتهم وعهود أكابر الملوك والمكاتبات الى الطبقة العليا من الملوك كأكابر القانات (= جمع قان وهو لقب لملوك الشرق) .

2- قطع البغدادي الناقص : وعرضه دون عرض البغدادي الكامل بأربعة أصابع مضمومة وكان يكتب فيه للطبقة الثانية وربما كتب فيه للطبقة العليا لاعواز البغدادي الكامل .

3- قطع الثلثين من الورق المصري : وعرضه ثلثا ذراع بذراع القماش المصري أيضاً وفيه تكتب مناشير الامراء المقدمين وتقاليد (= كتب التنصيب) النواب الكبار (= نائب الخليفة أو الوزير وما أشبه) والوزراء وأكابر القضاة .

4- قطع النصف : وعرضه نصف ذراع بالذراع المذكورة . وفيه تكتب مناشير الامراء الطّبلخاناه (= امراء العسكر من أهل الطبول . والطّبلخانة مقرهم . والمعنى قريب من الحرس الخاص بالملوك والسلاطين) ومراسيم الطبقة الثانية من النواب (= نواب الولاة وامراء العسكر ونحوهم) والمكاتبات الى الطبقة الثانية من الملوك .

5- قطع الثلث : وعرضه ثلث ذراع بالذراع المذكور . وفيه تكتب مناشير امراء العشرات (= لعلهم بعض امراء العسكر) ومراسيم صغار النواب والمكاتبات الى الطبقة الرابعة من الملوك .

6- القطع المعروف (بالمنصوري) : وعرضه ربع ذراع بالذراع المذكورة . وفيه تكتب مناشير الممالك السلطانية ومناشير عشرات التركمان (= العسكر من التركمان) وبعض الممالك الشامية وبعض التواقيع (= الأوامر السلطانية ونحوها) .

7- القطع الصغير . ويسمى قطع (العادة) : وعرضه سدس ذراع بالذراع المذكورة . وفيه تكتب عامة المكاتبات لأهل المملكة وحكامها

وبعض التواقيع والمراسيم الصغار والمكاتبات الى حكام البلاد بالممالك وما يجري هذا المجرى .

8- القطع الشامي الكامل : وعرضه عرض الطومار الشامي في طوله (= الظاهر أن الطومار الشامي أقل من الطومار البغدادي ، فيكون بذلك عرضه أقل من ذراع بالذراع المصرية وطوله أقل من ذراع ونصف) . قال القلقشندي : ((وهو قليل الاستعمال بالديوان ، الا أنه ربما كتب فيه بعض المكاتبات)) .

9- القطع الصغير : وهو في عرض ثلاثة أصابع مطبوقة من الورق المعروف (بورق الطير) . وهو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية. وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام (= الرسائل التي ترسل بالحمام المعروف بالزاجل ونحوه) .

وجرى العرف في القرن الرابع الهجري وربما قبله على تقسيم الورق من حيث المادة المصنوعة منه الى قسمين : أحدهما : القرطاس : وهو الورق المصنوع من البردي ومراكز صناعته في مصر . والآخر : الكاغد : وهو الورق المصنوع من غير البردي ويسمى عادة بالكاغد السمرقندي نسبة الى سمرقند وهي بلاد ما وراء النهر عرفت بصناعته .

وكانت مواد الكتابة المستعملة في صدر الاسلام هي عينها المستعملة في العصر الجاهلي ولا تتعدى العسب واللخاف والرقاع والأكتاف . وذكرت المصادر أن القرآن الكريم كان يكتب في عهد النبي (ص) في العسب (= جمع عسيب وهي جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها)،

واللخاف (= حجارة بيض رقاق . وأحدها لخفة) . والرقاع (= واحدها رقعة : وهي قطعة من النسيج يكتب فيها) ، وأحياناً في الحرير (= القماش المصنوع من الحرير)، وقطع الأديم (= الجلد المدبوغ)، والأكتاف (= عظم الكتف ولا سيما كتف البعير) .

وتعود أصل صناعة الورق في التاريخ الى الصين . والظاهر أنهم كانوا يصنعونه من الحشيش والكلأ . وقال القلقشندي ((وعنهم أخذ الناس صنعة الورق)) . وذكر ان أهل الهند كانوا يكتبون في خرق الحرير الأبيض (صبح الأعشى 485/2 ، 486) .

ونقلت بعد ذلك صناعة الورق (الكاغد) من الصين الى ما وراء النهر (= سمرقند) . وذلك في القرن الثالث الهجري ، ثم انتقلت في القرن الرابع الهجري الى دمشق وطبرية بفلسطين وطرابلس الشام .

وذكر الادريسي (= أديب جغرافي معروف) أنه كان يعمل في القرن السادس الهجري بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض .

وعرف (الكاغد) بالورق السمرقندي . وكان يصنع في الغالب من ورق التوت والغاب الهندي (= فصيلة من الأشجار) . وأدخل المسلمون فيها بعد صناعته تطويراً مهماً بأن نقوه مما كان يستعمل في صناعته من ورق التوت والغاب الهندي .

والظاهر من مصادر الأخبار ان القرطاس وهو الورق المعمول من البردي كان معروفاً ومستعملاً في القرن الثاني الهجري إذ ذكر الطرطوشي (= أبو بكر محمد بن الوليد) في كتابه الموسوم بكتاب (الحوادث والبدع ص 97 ت / محمد الطالبي – تونس 1959) أن مالكاً – وهو مالك بن أنس – كره أن يكتب القرآن في القراطيس .

وأفاد بعض الباحثين أنه أنشئ مصنع لعمل الورق السمرقندي ببغداد منذ القرن الثاني الهجري . وهي أول اشارة الى معرفة (الكاغد) وصناعته في القرن الثاني الهجري ، وهي اشارة مبكرة لأن المعروف أن هذا النوع من الورق عرف في القرنين الثالث والرابع الهجريين . وذكر ابن النديم في الفهرست (= ألفه في القرن الرابع الهجري) أنه عثر على وثائق مكتوبة على ورق تهامي (= أي مصنوع في التّهامة بالجزيرة العربية) واستدل بهذا القول جماعة من الباحثين على وجود موضع آخر لعمل الورق على الشاطئ الجنوبي الغربي لجزيرة العرب (انظر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز هامش المترجم 367/2) .

أما القراطيس وهي الورق المصنوع من البردى فقد انتهت صناعة تجهيزها في مصر منذ القرن الرابع الهجري وحل محلها (الكاغد) . ويبدو من الأخبار أنه في أواخر القرن الثالث الهجري كانت القراطيس تصنع في مصر للسلطان على قدر كفايته الا أن هذه الصناعة بدأت تقل شيئاً فشيئاً الى أن انتهت في القرن الرابع الهجري . ورجح هذا الرأي كراباتشك (= مستشرق) على ما نقله آدم متز (الحضارة الاسلامية

366/2) . قال : ((يمكننا أن نقول مع كثير من الترجيح أن صناعة تجهيز ورق البردي بمصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالاجمال حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي (= القرن الرابع الهجري) فنجد أن ورق البردي المؤرخ ينتهي في عام 323هـ - 935م انتهاءً تاماً على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها عام 300هـ - 912م)) .

ويظهر لنا مما تقدم أنه الى حدود القرنين الثالث والرابع الهجريين كان جل الاعتماد في الكتابة على ورق البردي المجلوب من مصر . وكان طول القرطاس الواحد (ويسمى طوماراً أيضاً) ثلاثين ذراعاً يقطع ويستعمل في الكتابة . وذكر السيوطي في كتابه (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) أنه في القرن الرابع استعمل الناس الكاغد بدلاً من القراطيس والجلود . والظاهر أنه كان يعني أهل مصر . وربما شاع ذلك في بغداد والمشرق الاسلامي قبل ذلك ، وربما اقتصر في استعمال الكاغد في أول الأمر على الخلفاء والوزراء وذوي الرئاسة من كبار رجال الدولة ونحوهم ثم شاع استعماله بعد كثرة صنّاعه وصناعته بين الناس .

ويدل على ندرة ورق الكاغد في القرن الرابع الهجري ما حكاه ياقوت الحموي في كتابه معجم الادباء من أن الوزير أبا الفضل بن فرات كان يستعمل له الكاغد بسمرقند ويحمل إليه بمصر في كل سنة (توفي ابن الفرات سنة 391هـ) وان احد العلماء وقعت له جملة من كتب هذا الوزير فكان اذا رأى ورقة بيضاء في أحدها انتزعها حتى عمل من ذلك كتباً كتب فيها .

وفي عهد ياقوت نفسه (توفي سنة 626هـ) أي في القرنين السادس والسابع الهجريين كانت صناعة الورق معروفة في بغداد ، وكان الورق مستعملاً لدى الناس ولا سيما الكتّاب إذ أشار ياقوت الى أن الكاغد كان يعمل في عصره بدار ببغداد . وكثر استعماله في القرون التالية بحيث نسي الناس ورق البردي تماماً وعولوا في كتابتهم على الكاغد .

وبقي حال الورق هكذا الى أن ادخلت تطويرات أساسية على صناعته بعد اكتشاف الطباعة وقيام الثورة الصناعية في أوربا واستعمال العجينة المعروفة بعجينة السليلوز في صناعة الورق وما صاحبها من تغيير وتنويع وتجويد في قطع الورق وسمكه وقوته ولمعانه وألوانه ... الخ .

هذا مختصر في صنعة الورق مما أفادته بعض كتب التراث . وللورق حكاية طويلة. وفي تراثنا الكثير من هذه الاشباه والنظائر وللباحث أن يستفيد مما يراه مفيداً .

العقل والذكاء في تراثنا الثقافي[6]

درج أغلب الناس على استعمال الفاظ كثيرة في مخاطباتهم ومراسلاتهم وكتاباتهم من غير أن يكون لهم نصيب من فهم معانيها الدقيقة ولا سيما الألفاظ الدالة على القضايا المعنوية كالعقل والذكاء والفهم والذهن والبديهية والصدق والامانة والعلم والمعرفة والحب والكره والخير والشر والروح والنفس ... الخ .

ولهم في ذلك بعض من الحق إن لم يكن كله لأن مثل هذه الألفاظ أعجزت حتى المتخصصين من علماء اللغة والفلاسفة وعلماء النفس على أن يتواضعوا على تعريف بها (جامع مانع) كما يقول أهل المنطق .

وكم منا تبدو له الكلمة واضحة في ذهنه . ومراده أن يطلب إليه أن يضع لها حداً (= تعريفاً) فيحار أي الألفاظ يختار ، فهو كالماء تراه وتشربه وترتوي به من عطش شديد الا أنه (عديم اللون والطعم والرائحة) كما يقول أهل علم الطبيعة .

وأمثال هذه الألفاظ من (السهل الممتنع) أي أننا نشعر بها فهماً في العقول والقلوب على اختلاف درجات أهل العلم والمعرفة ولكننا لا نجد لها تعريفاً يتفق عليه الجميع .

ومن طريف هذه الألفاظ كلمتان هما (العقل) و (الذكاء) وبخاصة حين نصف بهما ونقول على سبيل المثال : فلان عاقل وذكي ، ولفلان عقل راجح

---

[6] جريدة العراق (3870) في 10 تشرين الأول 1988

وذكاء متّقد ، وفلان ذكي ألمعي ، وهو أعقل القوم وأذكاهم ... وهكذا ... الخ .

فما معنى هاتين الكلمتين ؟ وكيف فهم أسلافنا معنى (العقل) و (الذكاء) ؟

وللحديث طرائف كثيرة في كتب التراث ارتأيت أن اجتزئ بأمثلة ميسرة لبيان مفهوم (العقل) و الذكاء في تراثنا الثقافي وما يرتبط بهما من أمثلة وشواهد ونوادر وحكايات : ... قيل عن (العقل) أنه مأخوذ من (عقال) البعير بمعنى منعه لأن العقل يمنع ذوي العقول من العدول عن سواء السبيل . وعرّف (العقل) في المصطلح الفني بأنه ((جوهر مجرد يدرك الغائيات بالوسائط ، والمحسوسات بالمشاهدة)) . (التعريفات – للشريف الجرجاني ص 81 طبع تونس 1971) .

ومعنى قولهم (جوهر مجرد) أنه غير محسوس أي من قبيل المعنويات . ومعنى قولهم (يدرك الغائيات بالوسائط) أي يدرك المعلومات بالوسائط والوسائل الموصلة اليها . لذلك قيل عن بعض أهل العلم والمعرفة (على ما رواه الأبشيهي في المستطرف 13/1) ((العقل جوهر مضيء خلقه الله عز وجل في الدماغ وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة)) . وادراك المحسوسات بالمشاهدة يعني ادراك القضايا المحسوسة التي يبصرها الانسان أو يسمعها أو يلمسها أو يشمّها في العالم الخارج عن ذاته بما يشاهده من ضروب الاحساس المادي بالأشياء. وهذا كلام أهل المنطق والفلسفة في بيان معرفتهم العقل . ومن تقسيماتهم الطريفة للقوة العاقلة في الانسان تمييزهم العقل الغريزي

من العقل التجريبي ، وهو ضرب من علم النفس ، فالغريزي مشترك بين العقلاء ولا يقبل الزيادة والنقصان ، أما التجريبي فهو مكتسب أي يقبل الزيادة والنقصان بتنمية الملكة العاقلة عند الانسان ((وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع ، وباعتبار هذه الحالة يقال أن الشيخ أكمل عقلاً و أتم دراية ، وأن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة)) .

وأشار القرآن الكريم الى أرجحية العقل مقارناً بينه وبين الجهل ، وورد العقل بمعناه في مواضع كثيرة بألفاظ وعبارات نحو : (عقلوه) و (تعقلون) و (نعقل) و (يعقلها) و (يعقلون) ولاسيما عبارة (أفلا تعقلون) . (البقرة /44 ، 73 ، 76 ،242- آل عمران / 65 ، 118 – الانعام / 32 ، 151) .

وشرّف الله تعالى العقل وجعله ميزاناً توزن به الأمور وفيصلاً بين الحق والباطل والعلم والجهل . وروي عن النبي (ص) أنه قال : ((أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال له عز من قائل : وعزتي وجلالي ما خلقت أعز علي منك ، بك آخذ وبك اعطي وبك اعاقب)) (المستطرف 13/1) .

وكان للفضلاء من السلف الصالح سمات وصفات يستدلون بها على رجاحة عقل العاقل ، ومنها ميله الى محاسن الأخلاق وإسداء المعروف وإعراضه عن المنكرات والموبقات . ومن محاسن ما يروى في ذلك أنه قيل لبعض الحكماء : ((بم يعرف عقل الرجل ؟ فقال : بقلة سقطه (= الخطأ) في الكلام وكثرة أصابته فيه ، فقيل له : فان كان غائباً ؟ فقال بإحدى ثلاث إما برسوله وإما بكتابه وإما بهديته ، فان رسوله قائم مقام نفسه وكتابه

يصف نطق لسانه وهديته عنوان همته فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها)) .

وبين (العقل) و (الفهم) أواصر قربى ليس في اللفظ ولكن في المعنى . والفهم في معناه اللغوي : تصور الشيء من لفظ المخاطب . ووردت الكلمة بهذا المعنى في قوله تعالى (ففهمناها سليمان) (الأنبياء آية 79) أي جعلنا له فضل قوة في فهمها (أنظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم – مادة ((فهم)) 116/2 – وضع مجمع اللغة العربية في القاهرة) .

ومن هذا القبيل ايضاً لفظ (الحكمة) ، وتعني لغة : العلم مع العمل ، وتطلق اصطلاحاً على معان منها : الحكمة : ((يستفاد منها ما هو الحق في نفس الأمر بحسب طاقة الانسان)) أي أن يكون الحق في نفسه حقاً ويكون الوصول اليه على حسب ما أوتي الانسان من طاقة .

وقيل : كل كلام وافق الحق فهو حكمة ، وقيل : الحكمة هي الكلام المعقول المصون عن الحشو (التعريفات ص 41) . ووردت الحكمة بمعنى ما يتحقق فيه الصواب من القول والعمل في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى في سورة البقرة/ آية 129 : (يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

ومن مشتقاتها كلمة (حكيم) أي ذو الحكمة . والحكيم من صفات الله تعالى . ووردت هذه العبارة في كثير من آي القرآن الكريم . ومن مشتقاتها أيضاً كلمة (الحكم) بمعنى (الحكمة) . ووردت في بعض الآي كقوله تعالى

في سورة يوسف / آية 22 : (ولما بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً) . و (الذهن) له علاقة بالعقل والفهم والذكاء . لذلك تراهم جمعوا بين هذه الألفاظ في الاصطلاح ، فحد الذهن : قوة النفس المهيأة المستعدة لاكتساب الآراء)) ، أي قوة النفس العاقلة المستعدة لاكتساب المعرفة. وحد الفهم : ((جودة التهيّؤ لهذه القوة)) . أما الذكاء – وهو مقصود حديثنا ومدار بحثنا – فحده : ((جودة حدس من هذه القوة تقع في زمان قصير غير ممهل فيعلم الذكي معنى القول عند سماعه)) (ابن الجوزي : كتاب الأذكياء ص 11) . ومعنى ذلك أن صفة الذكاء تتحقق في الانسان حين تجود قوة حدسه . بحيث يفهم القول في زمان قصير يقصر عن فهمه وادراك فحواه من أوتي من الذكاء نصيباً غير موفور . ومثل فهم القول فهم الامور في مجملها وما يعترض الانسان في حياته من تجارب .

وللغويين على معنى الذكاء واشتقاقه كلام ، فأصل الذكاء عندهم من (ذكيت النار) اذا أتممت اشعالها . ومنه أخذ معنى الذكاء وهو تمام الشيء . ومنه أيضاً الذكاء في السنّ (= العمر) وهو تمام السن . والذكاء في الفهم هو أن يكون فهماً تاماً سريع القبول . هذا ما ذكره الزجاج في ما يرويه ابن الجوزي (كتاب الأذكياء ص 11) ، ونحوه قول ابن الانباري ، قال : ((قولهم فلان ذكي : معناه كامل الفطنة تامها . من قول العرب : قد ذكت النار اذا تمّ وقودها ، ويقال أذكيتها أنا اذا أتممت وقودها ، ويقال: مسك ذكي اذا كان تام الطيب كامل نفاذ الريح)) .

ويفهم من ذلك كله أن الذكاء له في اصل اللغة معنى مادي أي استعمال حسّي وهو قولهم : ذكيت النار إذا اشعلتها وأتممت اشعالها ومسك ذكي اذا وصفته بتمام الرائحة و نفاذها ، ثم انتقل المعنى الى مجال آخر غير حسّي فاطلق على تمام الفهم والفطنة في تدبير الامور .

وفي العربية ألفاظ خاصة بالعقل والذكاء وردت في المتون الشعرية والنثرية وجمعت في معاجم اللغة ومنها :

الأريب = العاقل الداهية ، والجزل = العاقل الأصيل الرأي ، والكيس = العاقل الظريف ، والحصيف = المستحكم العقل ، والنهي = ذو العقل والرأي أو المتناهي في العقل ، والأوزع = الذكي الحديد الفؤاد ، والزكن الفطن الصادق الحدس ، والأحودي = الذي يحسن تصريف الأمور لعلمه بها والسريع في كل ما يأخذ به ، والحصحوص أو الصحصح أو الملتقص = الذي يتتبع دقائق الامور فيعلمها و يحصيها ، واللقن = السريع الفهم ، والجحجاح = السيد الأريب العاقل ، والنحرير = الحاذق المجرب العاقل الفطن .

ومن مرادفات العقل : اللب والحجي والأرب والمرة والحصاة والنهية والمسكة والكيس والحلم .

ويقال : رجال دنج أي عقلاء . والبصيرة = قوة القلب المدركة والفطنة، والشهومة = ذكاء الفؤاد ، والدهاء = الفطنة وجودة الرأي . ومن صفات النساء قولهم : الموثومة = وهي المرأة الذكية المهذبة وان لم تكن ذات

حسن ، ومن عباراتهم يقال : دهي فلان وتدهى = فعل فعل الدهاة ، وأرب فلان الشيء = صار فيه ماهراً بصيراً .

والعرب كانت ترى قوة العقل في القلب فيصفون بذلك وانصرفت معانيهم الى قوة القلب وحدة الفؤاد كما قالوا : بصره حديد اي قوي .

وفي التراث أخبار كثيرة وطرائف متنوعة عن الأذكياء تراها مبثوثة في متون الكتب الجامعة للأدب . ولعل ابن الجوزي من الادباء القلائل الذين انفردوا بتأليف كتاب خاص بالأذكياء جامع لأخبارهم وملحهم وطرائفهم .وابن الجوزي (وهو عبد الرحمن بن علي الجوزي المتوفى في سنة 597 هـ) عالم أديب مشارك في جملة من العلوم الاسلامية كالحديث والأدب واللغة، وله باع طويل في ادب الحكايات والقصص والنوادر من حيث جمعها وتبويبها ومنها كتابه في الأذكياء ومعظم الاخبار الواردة في هذا الكتاب عن الأذكياء بغض النظر عن مدى صحتها – وبعضها صحيح – تظهر العناية بالترتيب كأن تصنف الأخبار بحسب التسلسل الزمني أو الموضوعي من حيث الرتبة أو المهنة ، فترد أخبار عن الرسول (ص) والصحابة وغيرهم من الجيل الأول ، ثم ترد أخبار عن الخلفاء والوزراء والقضاة والفقهاء والنحاة واللغويين والعلماء كالأطباء والمعلمين والمؤدبين ... الخ ثم تفرد أخبار عن عامة الناس . ومن نوادر ما أفرده ابن الجوزي لمعاً من فطن الحيوان .

ورويت طرائف عن فطن الحيوان وذكائه . وهي روايات وان كانت تفتقد التثبت من صحتها الا انها تعني مدى اهتمام الناس بتتبع حركات الحيوان

وحالاته . من ذلك ما قيل عن العصافير أنها لا تقيم الا في دار مسكونة فإن هجرها الناس لم تقم . وأما الهرّة فإنها تألف الدار وان رحل أهلها . والكلب يرحل مع أهل الدار ولا يلتفت الى الدار . ومتى طرقت العصافير آفة استغاثت فأغاثها كل عصفور يسمع استغاثتها .

وقالوا عن الحيات أن منها ما يغمس ذنبه في الرمل وينتصب قائماً نصف النهار في شدة الحر فيجيء الطائر فيكره الوقوع على الرمل لحره فيقع على رأس الحية على أنها عود فتقبض عليه . واليربوع لا يتخذ جحره (= بيته) الا في كدوة وهو الموضع الصلب ليرتفع عن السبيل فيسلم من مجاري المياه ومدق الحافر . والظبي لا يدخل كناسه (= بيت الظبي) الا وهو مستدير يستقبل بعينيه ما يخاف على نفسه . والسنّور (= الهر) يرى الفأرة في السقف فيحرك يده كالمشير لها بالعود فتعود ثم يشير اليها بالرجوع فترجع ، وانما يطلب أن تنزلق فلا يزال يفعل ذلك حتى تسقط . والنملة والذرة (= أصغر النمل) تدخر في الصيف للشتاء ثم تخاف على المدخّر من الحبوب العفن فتخرجه فتنشره ليضربه الهواء وربما اختارت ذلك في ليالي القمر لأنها فيه أبصر فان كان مكانها ندياً وخافت أن تنبت نقرت وسط الحبة كأنها تعلم أنها تنبت من ذلك المكان وفلقتها نصفين فإن كان كزبرة (= نبت طيب الرائحة) فلقتها أربعاً لأن أنصاف الكزبرة تنبت من بين جميع الحبوب ..

علم (المصطلح) في التراث[7]

في تراثنا الفكري مجاميع من الكتب تناولت موضوعاً يعد من أدق الموضوعات العلمية من حيث البحث والتحديد والتدقيق والاستقصاء . هذا الموضوع هو التعريف بمصطلحات العلوم والفنون التي كانت معروفة متداولة في العصور المختلفة لتراثنا .

ولا ريب في أن المطلع على المعايير الأساسية لعلم من العلوم أو فن من الفنون يعلم جيداً ما للمصطلح من أهمية بالغة في تقصي حدود المعرفة الفنية لذلك العلم من حيث الأصول والفروع والتقسيم والتحديد . ومن هنا تتخذ اللغة (العلمية) طابعاً مميزاً لإيصال المدلول الفني للعبارات المصطلح عليها ، ولولا هذا المدلول لما أمكن تحديد مفهوم العلم وأساسه وقواعده ومنهجه .

ومن نافلة القول أن نجد في تواريخ العلوم عامة مرحلة تدعى بمرحلة التأسيس وهي من المراحل الاولى وفيها يتواضع على المصطلحات المطلوبة لاقامة الهيكل الفني لعلم أو معرفة أو فن أو أدب أو فلسفة . وغالباً ما يصطخب الجدل في هذه المرحلة بين أصحاب العلوم والفنون المختلفة في تحديد المصطلحات المتعلقة بعلومهم وفنونهم ويمتد ذلك الى سنوات ربما كانت عجافاً حتى ترسى القواعد ويكتمل البنيان .

---

[7] جريدة العراق (3927) في 17 / كانون الأول / 1988 .

ولا يشعر الانسان بقيمة المصطلح الا اذا تخيل مثلاً علوماً كالفقه واللغة والقانون والرياضيات والهندسة والطب والفلك مجردة عن قوائم مصطلحاتها المتواضع عليها لدى أصحابها . وهذه الأمثال لا تحتاج الى عناء كبير لفهمها فاذا توضح ذلك فما علينا الا أن نسأل عن دور التراث في هذا الحقل من حقول المعرفة الخصبة ؟ فما المصطلح في مفهوم التراث ؟ وكيف يتبين لنا جهود الذين عملوا فيه من أسلافنا ؟ وما قيمة ما وضعوه من كتب ومعجمات ؟

ونسترسل في الحديث مبتدئين بمفهوم (الاصطلاح) و (المصطلح) من حيث الدلالة اللغوية والفنية ، فالاصطلاح : مصدر (اصطلح) على الشيء اصطلاحاً ، ومن مشتقاته عبارة (المصطلح) يقال : اصطلح على الشيء فهو مصطلح عليه . و (المصطلح) اسم لما اصطلح عليه ، وكذلك (الاصطلاح) ينفع أن يكون مصدراً واسماً لما اصطلح عليه . وتجمع عبارة (اصطلاح) على (اصطلاحات) . وعبارة (مصطلح) على (مصطلحات) ، وان كانت بعض كتب التراث المعنية بهذا الأمر تستعمل عبارة (اصطلاحات) بدلاً من (مصطلحات) وخاصة في تسمية بعض الكتب كتسمية التهانوي لكتابه (كشف اصطلاحات الفنون) .

أما الدلالة الفنية لعبارة (الاصطلاح) فهي ((اخراج الشيء عن المعنى اللغوي الى معنى آخر لبيان المراد منه . وذلك لمناسبة بينهما كالعموم والخصوص (= ان يكون معنى الكلمة عاماً والمصطلح خاصاً) أو لمشاركتهما في أمر (= وجود قرينة معنوية بين المعنى اللغوي

والاصطلاحي) أو مشابهتهما في وصف (= وجود قرينة وصفية بين المعنيين) الى غير ذلك ..)) (محيط المحيط لبطرس البستاني ص 515 – طبع دار لبنان – بيروت 1983) .

وعرف الكافيجي (= محي الدين الكافيجي من كبار علماء الحديث واللغة والأدب وله باع طويل في علم المصطلح . توفي سنة 879 هـ) المصطلح بأنه ((ألفاظ مخصوصة موضوعة لمعان يمتاز بعضها عن بعض باعتبار قيد يميزه عنه . وسبب اطلاقها عليه هو الاتفاق على وضعها لتلك المعاني لتحصل عند استعمالها مع أداتها اصلاح المعاني ودفع فساد التباسها بعضها ببعض)) (المختصر في علم الأثر ص 112 – ضمن رسالتين في مصطلح الحديث – تحقيق د . علي زوين – دار الرشد – الرياض 1987) .

ويتبين من ذلك كله أن (الاصطلاح) أو (المصطلح) : تحديد لمعنى متواضع عليه في علم أو معرفة ما يتداوله أصحابه لبيان أغراضهم وافهام بعضهم بعضاً ودفع الالتباس والغموض بين المعاني .

وقد بذل أسلافنا جهداً كبيراً في موضوع المصطلح سواء من حيث تأليف الكتب والمعجمات أو من حيث قيمة ما ألفوه . والناظر في هذه الكتب يتبين له بوضوح أنها تنقسم الى ثلاث مجموعات :

الأولى : كتب صنفت فيها العلوم أقساماً وفروعاً ، وتحت كل قسم بيان لموضوعات العلوم . مثل كتاب (احصاء العلوم) للفارابي و (مفاتيح

العلوم) للخوارزمي ، و (الدر النضيد) لأحمد بن يحيى الحفيد الهروي ، و (مفتاح السعادة) لطاش كبرى زاده.

الثانية : كتب رتبت فيها أنواع العلوم والكتب المؤلفة فيها ترتيباً معجمياً على حسب الحروف . وأشهرها وأوسعها كتاب (كشف الظنون) لحاجي خليفة .

والثالثة : كتب رتبت فيها المصطلحات العلمية والفنية ترتيباً معجمياً على حسب الحروف . وتعد هذه الكتب معاجم في المصطلح الدلالي مادة وترتيباً . وأشهرها : كتاب (التعريفات) للسيد الشريف الجرجاني . وكتاب (كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانوي ، وكتاب (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون) للأحمد نكري .

هذا من حيث المنهج لكتب المصطلح في التراث . أما من حيث تاريخ التأليف في هذا المجال والمناهج الخاصة وقيمة الكتب فيعد الفارابي المتوفى سنة 335 هـ من المصنفين الأوائل في المصطلح . وكتابه (احصاء العلوم) يشهد له على الاختصار وحسن الاختيار وتوضيح المقاصد ومراعاة الدقة في العبارة .

قال الفارابي في مقدمة كتابه مشيراً الى منافعه ((... وينتفع بما في هذا الكتاب لأن الانسان اذا أراد أن يتعلم علماً من هذه العلوم وينظر فيه علم على ماذا يقدم وفي ماذا ينظر وأي شيء سيفيد بنظره وما غناء ذلك وأي فضيلة تنال به ليكون اقدامه على ما يقدم من العلوم على معرفة وبصيرة لا

على عمى وغرور ..)) (إحصاء العلوم ص54 – بتحقيق عثمان أمين – طبع مصر) .

وذكر السبب في تأليف الكتاب قائلاً ((... قصدنا في هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علماً علماً ، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ما له منها اجزاء ، وجمل ما في كل واحد من اجزائه)) (إحصاء العلوم ص 53) . وجعله في خمسة فصول :

الأول : في علم اللسان واجزائه (= علم اللغة) ، والثاني في علم المنطق واجزائه. والثالث في علوم التعاليم ، وهي : العدد (= الحساب والرياضيات) ، والهندسة ، وعلم المناظر (= علم يتناول مقدار أبعاد الأشياء وأحجامها) وعلم النجوم التعليمي ، وعلم الموسيقى ، وعلم الاثقال (= علم ينظر في الموازين والاثقال التي تحرك أويحرك بها) ، وعلم الحيل (= علم يتناول تطبيق العلوم الرياضية والهندسية على المسائل العددية والأجسام الطبيعية كعلم الجبر والمقابلة ، والحيل الهندسية ، والبناء ، وصناعة الآلات النجومية والموسيقية ونحوها .. الخ) .

والرابع : في العلم الطبيعي واجزائه (= علم الطبيعة من أقسام العلوم الفلسفية) ، والعلم الإلهي واجزائه (= من اقسام العلوم الفلسفية ويبحث عادة في ما يدعى اصطلاحاً بعلم ما بعد الطبيعة) .

والخامس : في العلم المدني وأجزائه (= علم الأخلاق من أقسام العلوم الفلسفية). وعلم الفقه والكلام .

وفي القرن الرابع الهجري ألف أبو عبد الله محمد بن يوسف الخوارزمي (توفي سنة 387 هـ) كتابه المسمى (مفاتيح العلوم) وهو كتاب صغير الحجم كبير الفائدة جمع فيه معظم المصطلحات الأساسية للعلوم والفنون المعروفة في زمنه .

قال الخوارزمي في مقدمة كتابه ذاكراً السبب الذي دعاه الى تأليفه وقد أهدى الكتاب الى أديب لغوي هو ابو الحسن عبيد الله بن احمد العتبي : ((... دعتني نفسي الى تصنيف كتاب باسمه النابه – أعلاه الله – يكون جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات ، متضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات التي خلت منها أو من جلها الكتب الحاصرة لعلم اللغة حتى أن اللغوي المبرز في الأدب اذا تأمل كتاباً من الكتب التي صنفت في أبواب العلوم والحكمة ولم يكن شدا صدراً من تلك الصناعة لم يفهم شيئاً منه وكان كالأُمي الأغتم عند نظره فيه)) (مفاتيح العلوم ص 2) .

وبيّن منهجه الذي اتبعه في تأليف الكتاب قائلاً : ((وقد جمعت في هذا الكتاب أكثر ما يحتاج اليه من هذا النوع متحرياً للإيجاز والاختصار ، ومتوقياً للتطويل والاكثار ، والغيت ذكر المشهور المتعارف بين الجمهور ، وما هو غامض غريب لا يكاد يخلو اذا ذكر في الكتاب من شرح طويل وتفسير كثير ...)) (مفاتيح العلوم ص 4) .

وقسمه على مقالتين تتألف الاولى من ستة أبواب يندرج تحتها اثنان وخمسون فصلاً. وتتألف الثانية من تسعة أبواب يندرج تحتها واحد وأربعون فصلاً . ويتناول في هذه الفصول المصطلحات الأساسية الخاصة

بالفقه وعلم الكلام والنحو ومواضعات الكتّاب ومصطلحات الشعر والعروض والاخبار والفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والحيل والكيمياء .

وألف السيد الشريف الجرجاني المتوفى سنة 816 هـ كتابه الموسوم بـ (التعريفات). ونال هذا الكتاب على الرغم من صغر حجمه شهرة واسعة بين أوساط العلماء والمتعلمين لفضل مؤلفه وتضلعه من العلوم التي كانت شائعة في عصره . ويعد كتاب التعريفات من الكتب الأوائل التي صنفت فيها المصطلحات تصنيفاً على حروف المعجم وقد جمع فيه الجرجاني معظم ما يحتاج اليه من ألفاظ العلوم والفنون بإيجاز ووضوح ودقة في التعريف ما خلا بعض المواضع . ورتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول . وموضوعه المصطلحات المتعارف عليها بين المحدّثين والفقهاء والنحاة والصرفيين والاصوليين وأهل المنطق والفلسفة وغيرها من مصطلحات العلوم كالرياضيات والهندسة والفلك .

ويعد كتاب (الدر النضيد من مجموعة الحفيد) لأحمد بن يحيى بن محمد الحفيد الهروي (توفي سنة 906 هـ) من كتب المصطلح . وهو يشتمل على أربعة عشر علماً بأصولها وفروعها . وقسمه المؤلف الى قسمين الأول : يتناول ما اطلق عليه علوم المتشرعة . وهي : علوم القرآن والتفسير والحديث وعلم الأصول والفقه واللغة و الصرف والبلاغة والأدب وعلم الكلام . والثاني : أطلق عليه العلوم الفلسفية وتناول في الغالب القضايا المتعلقة بالمنطق والفلسفة .

ولعل كتاب (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) من أشبر كتب المصطلح المتأخرة التي ألّفت في هذا الفن من الفنون ومن أكثرها استيعاباً وتوسعاً . ألفه طاش كبرى زاده المتوفى سنة 968 هـ وقدم لكتابه مقدمة وافية تكلم فيها على فضيلة العلم والتعلم وشرائط المتعلم ووظائف المعلم وما تعلق بذلك من مسائل وامور تشهد على تقصيه وتحريه وحسن تبويبه الكتاب وترتيبه . ثم شرع من بعد ذلك في بيان أقسام العلوم وأصنافها ذاكراً أصولها وفروعها وما تعلق بها من تواريخ وفضائل وأدوات يحتاج اليها أهل كل علم من العلوم وأصحاب كل فن من الفنون وأهل كل صنعة في صنعتهم .

وهو كتاب جامع بين أقسام العلوم وتواريخها وأشهر الكتب المصنفة فيها وتراجم كبار العلماء مما كان لهم فضل النظر والتأليف في أنواع المعارف وأقسام العلوم والفنون .

ومن أهم ما يميز هذا الكتاب تفريعاته الكثيرة لموضوع العلوم ، فنجد في الموضوع الواحد تفريعات كثيرة تستقصي ما يندرج تحت العلم أو الفن المطلوب عناصره وأنواعه .

ولا غرو أنه جامع لمعظم المعارف الاسلامية كعلوم القرآن والفقه والحديث، و نجد فيه أقسام العلوم البحتة كالرياضيات والهندسة والفلك والطب والكيمياء . طبع في حيدر آباد الدكن – الهند في ثلاثة أجزاء .

وألف الحاجي خليفة المتوفى سنة 1067 هـ موسوعته المعروفة بـ (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) . وهي من نفائس كتب التراث في باب فهرسة أسماء الكتب ومؤلفيها . فيه زهاء (15,000) من أسماء الكتب والرسائل وما ينيف على (9,500) من اسماء المؤلفين ، وتكلم فيه على نحو ثلاثمائة علم وفن . ورتب المؤلف مواد كتابه على حسب الحروف الهجائية مراعياً الحرف الاول فالثاني فالثالث فالرابع قال شارحاً منهجه : ((... ورتبته على الحروف المعجمة كالمغرب والأساس حذراً عن التكرار والالتباس . وراعيت في حروف الأسماء الى الثالث والرابع ترتيباً ، فكل ما له اسم ذكرته في محله مع مصنفه وتاريخه و متعلقاته ووصفه تفصيلاً وتبويباً . وربما أشرت الى ما روي عن الفحول من الرد والقبول . وأوردت أيضاً أسماء الشروح والحواشي لدفع الشبهة ورفع الغواشي ...)) (جـ 1 ص 2 من مقدمة المؤلف – طبع اسطنبول) .

وألف المولوي التهانوي الهندي المتوفى سنة 1158 هـ كتابه (كشاف اصطلاحات الفنون) . ويعد هذا الكتاب من أضخم المعاجم للمصطلح الدلالي في التراث من حيث المادة والسعة . تحرى فيه المؤلف الدقة في تحديد المدلولات والاستقصاء في المادة . ورتبه على حروف الهجاء باعتبار الحرف الأول . وفيه جميع ما يحتاج اليه من مصطلحات العلوم والفنون التي كانت معروفة الى عصره . طبع الكتاب في كلكتا سنة 1862 م بإشراف الدكتور شبرنغر (= مستشرق) . واستغرق المطبوع مجلدين كبيرين .

وقريب من كشاف التهانوي كتاب (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون) الملقب بـ (دستور العلماء) تأليف القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (كان حياً سنة 1173 هـ) . ويعد (جامع العلوم) من معاجم المصطلح الضخمة . رتبه مؤلفه على حروف الهجاء بحسب الأبواب كباب الباء مع الألف ، وباب الباء مع التاء ، وباب الباء مع الحاء ... الخ .

فيه تحرٍ واستقصاء دقيق للمادة ووضوح في الشرح . ولعله من أفضل المعاجم المؤلفة في هذا المجال وفيه أغلب ما يحتاج اليه من مصطلحات العلوم والفنون كعلوم القرآن والحديث والفقه واللغة والصرف والبلاغة وعلم الكلام والفلسفة والعلوم البحتة كالحساب والهندسة والطب والفلك .. الخ قال الأحمدي نكرى موضحاً موضوع كتابه ومنهجه وترتيبه : ((... ان هذا (دستور العلماء) جامع العلوم العقلية ، حاوي الفروع والاصول النقلية ، فيه فوائد غريبة ، وطرائد عجيبة في تحقيقات اصطلاحات العلوم المتناولة ، وتدقيقات لغات الكتب المتداولة ، وتوضيحات مقدمات منتشرة مشْكلة على المعلمين ، وتلويحات مسائل مبهمة متعسرة على المتعلمين ، وبعبارة واضحة ليتيسر الوصول بها الى المـرام ... الخ)) الى أن قـال : ((.. وسلكت المطالب على صراط مستقيم جعلت الحرف الأول مع الثاني باباً ليسهل الوصول الى مقصودات المقاصد من الأبواب ، ولا يبقى الاحتياج في نيل المآرب الى عدة كتاب (كتب) ، وأشرت في أثناء البيان الى ابحاث شريفة ، ونثرت في سوق التبيان اعتراضات لطيفة ...)) (جـ 1 ص 302 من خطبة الكتاب) . طبع كتاب (جامع العلوم) في حيدر آباد الدكن – الهند في اربعة أجزاء .

ومن الكتب المتأخرة في موضوعات العلوم كتاب (أبجد العلوم) لصديق حسن القنوجي المتوفى سنة 1307 هـ . وهو كتاب لا يقل شأناً عن (مفتاح السعادة) لطاش كبرى زاده من حيث السعة والتحري والتدقيق . جعله مؤلفة في ثلاثة أجزاء وأطلق على كل جزء عنواناً ، فالجزء الأول سماه (الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم) : وتندرج تحته مقدمة وستة أبواب كبيرة تكلّم في المقدمة على اسم العلم ونسبته ومحله وبقائه ... الخ . وقسم الأبواب الستة على فصول وفيها بيان للعلم وتعريفه وتقسيمه وتعليمه ومنشأ العلوم والكتب والمؤلفين والمؤلفات وآداب العلم وانقسام الكلام الى فني النظام والنثر .

والجزء الثاني سماه (السحاب المركوم المُسطّر بأنواع الفنون وأصناف العلوم): ذكر فيه بتفصيل واستقصاء اقسام العلوم والفنون كعلوم القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب والفلسفة والعقائد والتاريخ والسياسة والفلك والصيدلة والرياضيات والموسيقى ... الخ .

والجزء الثالث سماه (الرحيق المختوم من تراجم أئمة العلوم) : أفرده لتراجم المؤلفين في العلوم والفنون التي ذكرها في الجزء الثاني .

وبعد ، فهذا غيض من فيض في علم المصطلح . وهو بحق مفتاح العلوم وله الشأن الجليل في فهم العلوم والفنون ولولاه لبقيت العلوم مجردة من أسبابها ، متعلقة بأوهام الخواطر ، عرضة للزلل والفساد ، ومآلها للاندراس وفي تراثنا الشيء الكثير من صفحات مطوية تحتاج الى من ينشرها . ومرايا مُكدّرة تحتاج الى من يجلوها .

تعقيب على رأي[8]

ايماناً من (الجامعة) بحرية الرأي ، وبأهمية تلاقح الأفكار في اغناء الفكر العلمي ، وانماء الحس النقدي في الرؤية والتفكير ، فقد حرصت على نشر التعقيبات والمناقشات التي تردها عما كتب ويكتب في اعدادها . وننشر هنا هذا التعقيب على مقال سابق نشر في ((الجامعة)) للدكتور مالك المطلبي تحت نفس العنوان .

العربية بين الاختصاص وغير الاختصاص

نشرت جريدة (الجامعة) الفتية في عددها الثاني (18 كانون الثاني 1989) مقالاً للاستاذ الدكتور مالك المطلبي تحدث فيه باختصار العالم المدقق عن مناهج تدريس اللغة العربية لغير أقسام الاختصاص . والاستاذ الدكتور من المعنيين بـ (المنهج) جمع بين التراث و (المعاصرة) وأحال الى ما توصل اليه علم اللغة الحديث ولا سيما علم اللغة العام من معطيات في ميادين المعرفة اللغوية ، وهو حريص على الا نقف حيث سار الآخرون وان نستفيد مما هو مفيد .

ومقال الدكتور الفاضل ترسيخ لثلاثة مبادئ متلازمة : الأول : النظر في منهج تدريس العربية لغير أقسام الاختصاص ، والثاني : الافادة من منهج

(8) جريدة الجامعة (9) في 8 / آذار / 1989

البحث اللغوي الحديث في تحليل الظاهرة اللغوية ودراستها ، والثالث : وضع مفردات العربية لغير الاختصاص على حسب الترابط العلمي بين الاختصاص ودرس العربية .

ويطيب لي أن اذكر بعض الملحوظات التي ارتأيت أنها مفيدة ونافعة ومن باب التعقيب والاستطراد وليس من باب الاستدراك ، على أني من المناصرين للاستاذ الفاضل على أكثر ما رآه وارتضاه ولا سيما الأخذ بمناهج علم اللغة الحديث في تدريس العربية وفهمها وافهامها .

ولك البيان :

1- اذا كانت الدعوة لتطبيق بعض مناهج علم اللغة الحديث على أقسام غير الاختصاص فهي أولى لتطبيقها على أقسام الاختصاص قبل غيرها . وثمة مثل يقول : الوليد أولى بأمه . ومناهج البحث اللغوي الحديث قد قطعت أشواطاً في ميادين المعرفة وليس لنا منها سوى نصيب (السلحفاة) في سبق الخيل .ويحسن بنا أن نبدأ بأقسام اللغة العربية في كلياتنا التي سيتخرج بها جمع من شبابنا المثقف الذي سيحمل عنا تبعة المسير وان لم نحملها عن أسلافنا كما ينبغي ومن نافلة القول أن نبدأ بما صار الآن عرفاً لغوياً (تقليدياً) في علم اللغة الوصفي ونرتب مفردات النحو والصرف في مناهج الاختصاص على النحو الآتي شرط أن تحذف كلمة (نحو) و (صرف) وتحل محلها عبارة (علم اللغة العربية) :

السنة الأولى : دراسة في المستوى الصوتي للعربية تتضمن دراسة الأصوات بتحليلها وأعني بها تكوين الصوت اللغوي والمخارج والصفات ، ودراسة التنظيم الصوتي وهو البحث التركيبي في الأصوات والظواهر المتعلقة بها كالابدال والادغام والنبر المقطعي ... الخ .

السنة الثانية : دراسة في المستوى الصرفي : وتتضمن أسس التحليل المورفولوجي في علم اللغة العام ، وعناصر التحليل المورفولوجي في العربية وهو أساس بناء الكلمة.

السنة الثالثة : دراسة في المستوى النحوي وهو بناء الجملة على أن تبدأ بالعناصر الأساسية لبناء الجملة في علم اللغة العام ثم تفصيل العناصر الأساسية لبناء الجملة العربية .

السنة الرابعة : دراسة في المستوى الدلالي بتحليل معنى الكلمة في الجملة أو منفردة عنها ، ودراسة العوامل النفسية والذهنية والاجتماعية في فهم المعنى وتحليله وتحقيقه. وينبغي لهذا المستوى أن يستوفي أيضاً البحث في (الاشتقاق) وأعني به تاريخ الكلمات وله جانب يتصل بـ (فقه اللغة) لتعامله مع النصوص القديمة ، والبحث في (المعجم) والسبل العلمية في وضع المعاجم .

2- وينبغي للطالب الا يعزل عن تراثنا اللغوي القديم وهو تراث جليل لا شك في أهميته وقيمته وقد أقرت أكثر المناهج اللغوية حداثة (المنهج التحويلي) بأصول توفر عليها أسلافنا بحثاً ودرساً وتدقيقاً

منذ مئات السنين . ولكي يتحقق ذلك يجب أن يدرس الطالب نصوصاً مختارة من العلوم اللغوية القديمة (نحواً و صرفاً و لغة) تواكبه طوال سني الدراسة على أن يكون الاعتماد في تحليل هذه الفصول على أمرين : أحدهما : العنصر الوصفي في دراسة النحو العربي منذ عصر سيبويه والجيل الأول من علماء اللغة ، والآخر : فهم العنصر المعياري في دراسة النحو العربي في القرون المتأخرة عن الجيل الأول (ابتداءاً من القرنين الخامس والسادس مثلاً) وهذا الدرس يفيد الطالب – يضاف الى ما ذكر- علماً بأساليب القدماء واصطلاحاتهم في تحليل الظاهرة اللغوية . والطالب معنيٌّ بالمصطلح القديم إذ لا جدوى من المبالغة في استعمال اصطلاحات معربة أو مترجمة من علم اللغة الحديث وهو أجنبي المنشأ . والسبيل القويم هو أن نستفيد من المصطلح الحديث بما يناظره أو يوافقه من ألفاظ ومصطلحات عربية.

3- أما تدريس العربية لغير الاختصاص فقد أفاد الدكتور مالك أموراً لا يسعنا أن نضيف اليها شيئاً سوى تذكيره بأمر (المصطلح) ، فالمصطلح الفني يكاد يكون علماً قائماً بذاته . وفي تراثنا دراسات جليلة في هذا الموضوع بلغت الغاية في التحقيق والتدقيق والاحاطة وبخاصة عند علماء الحديث والأصوليين وبعض الفلاسفة كالفارابي وعلماء آخرين أفردوا كتباً في الموضوع كالخوارزمي وأصحاب معجمات المصطلح كالشريف الجرجاني والتهانوي ومن المفيد أن يقرر لطالب غير الاختصاص ما يلائم مادة اختصاصه وفي مجال

المصطلح الفني سعة للمستزيد ، فالمصطلح الدلالي في الطب لطلبة كليات الطب ، والمصطلح الدلالي في الفن الموسيقي والتشكيلي لطلبة الفنون ، والمصطلح الدلالي في علم الهيئة والعدد والحساب والهندسة لطلبة كليات العلوم والهندسة .. الخ .

4- لتحليل الظاهرة اللغوية علاقة ببعض الاختصاصات ، فدراسة الأصوات مثلاً لها جانبان : جانب تشريحي له علاقة بأعضاء النطق وكيفية تكون الصوت باندفاع الهواء من الرئتين ومروره بالحنجرة ووصوله الى تجويف الفم وعلاقة تجويف الأنف بتكوين بعض الأصوات كالميم والنون واهتزاز الوترين الصوتيين وانغلاق الصوت وانفتاحه واتجاه اللسان الى سقف الفم في حال نطق بعض الأصوات ... الخ ، وجانب فيزيائي : يتعلق بوصول الموجات الصوتية من المتكلم الى المتلقي عن طريق السمع وتكون الذبذبات الصوتية وعلاقتها بعلو الصوت وانخفاضه وغلظه ورقته وبما يسمى اصطلاحاً بـ (قيمة الصوت) حين تسمع أحداً ولا تراه فتعرفه من صوته ولاشك في أن الجانب الأول أنسب لطالب الطب أن يدرسه في حين يكون الجانب الثاني أنسب لطالب الفيزياء . وجرت في أمريكا وأوربا بحوث ولا تزال جارية على الصم والبكم تعاضد فيها علماء الطب واللغة وأتت اكلها . وكل ذلك يقتضي (تقتيات) لغوية متطورة كمعمل للأبحاث الصوتية ، واكتساب الطفل اللغة هو أول مراحل التمرن اللغوي للإنسان وفي هذا المجال يشترك علم اللغة مع علوم اخرى في الافادة والاستفادة لتفادي أمراض الكلام كالحبسة واللثغة

والتأتأة ونحوها . وتشير كثير من الأبحاث الى تداخل علوم الطب والنفس والحياة (البايلوجي) ولا سيما علم الوراثة في دراسة مثل هذه الظواهر . والعادات الكلامية لها حال الانسان فهي منه ، لها الصحة والمرض والصحيح والخطأ والوصف الوراثي المكتسب . وتقويم هذه الامور ونظائرها يحصل بفهمها واستيعابها والاستفادة منها بإخراجها من التنظير الى التطبيق ولا يتأتى ذلك الا لمن أوتي حرصاً ووُسّع له في المجال .

كلمة ((يوبيل)) بين التعريب والدلالة[9]

نشرت جريدة الثورة الغراء في عددها الصادر يوم 1989/3/11 تعليقة للدكتور صالح احمد العلي على كلمة (يوبيل) واستأنست بما رأته – أو بما رآه صاحب الفكرة- أن يترك الموضوع للمناقشة في العبارات الآتية : (رأي للمناقشة : اليوبيل ... هل هي كلمة عبرية ؟) .

ومفاد تعليقة الدكتور الفاضل أن (اليوبيل) كلمة من أصل عبري ينبغي للعرب أن يتركوا استعمالها . واقترح أن تستبدل بها ألفاظ وتعابير وصفها بأنها ((... أصيلة تؤدي معانيها الى نفس الغرض ، ومن ذلك : الذكرى والعيد والاحتفال)) .. واستصوب ((ان تستعمل احدى هذه الكلمات العربية المؤدية الى نفس الغرض مع قرنها بالمدة من السنين التي يتم اختيارها)) . ويعني بذلك أن تستعمل عبارة (العيد الخامس والعشرون) ، أو عبارة (الاحتفال الخمسون) ... وهكذا .

وفي نشرة لاحقة أي في العدد الصادر يوم 1989/3/12 من جريدة الثورة ظهرت للاستاذ عبد المجيد الشاوي تعليقة اخرى بعنوان (اليوبيل : تراث عبري يهودي) عضد فيه مقالة صاحبه والتمس له الدليل وترك البديل . ولا يعنيني من هذا الأمر كله سوى ملحوظات أرى من المفيد ذكرها لكي نكون جميعاً على بينة . وفيما يأتي ما رأيته مفيداً للقول :

---

(9) جريدة العراق (4056) في 17 / أيار / 1989 .

1- يبدو أن كلمة (يوبيل) – أو (يوبل) Yobel كما تلفظ في أصلها – من مخلفات العبرية . وتعني في أصلها : صيحة فرح ، ورنة بوق ، وهما عبارتان متعلقتان بعيدٍ أو مهرجان ، والظاهر أنها استحدثت في الدلالة على عيد اليهود. وأغلب الظن أن دلالتها الزمنية وهي دلالتها على سنين مقدارها (خمس وعشرون) سنة لم تكن في الحسبان بادئ الأمر وانما حدث ذلك في مراحل متأخرة عن النص التوراتي . وما لا شك فيه أن دلالتها على (خمسين) عاماً أو (مائة) عام أمر قد حصل في العصور الحديثة بدليل استعمال الكلمة موصوفة، فاليوبيل الذهبي لخمسين عاماً واليوبيل الماسي لمائة عام ، فكلمة (يوبيل) في هذه العبارات لم تحدد الدلالة الزمنية وإنما حددتها ألفاظ : الفضي والذهبي والماسي . وجرت بعض اللغات الغربية الحديثة على استعمال هذه العبارات حتى اصبحت مصطلحات مفهومة وواضحة عند الجميع ، والظاهر أنها دخلت العربية عن طريق الترجمة كما دخلتها ألفاظ ومصطلحات عديدة .

2- من القضايا المُسّلم بها في علم اللغة أن أصلح الألفاظ ما انتقلت معانيها الى مرتبة (المصطلح) المتفق عليه عند الجمهور ولاسيما الألفاظ المفردة التي لا نظائر لها في اللغة المستعملة . وما اقترحه الدكتور الفاضل من ألفاظ : الذكرى والعيد والاحتفال لا تناسب هذا المقام لسببين : أحدهما : أن كلمتي (ذكرى) و (احتفال) عامتان لا تقترنان بزمن معين ، وأما كلمة (عيد) فمرتبطة عند المسلمين عموماً بمناسبتين دينيتين هما عيد الفطر وعيد الأضحى، وعلى ذلك

جرت العربية وان كنا نستعمل في يوم الناس هذا كلمة (عيد) للدلالة على مناسبات اخرى كأن تكون مناسبات وطنية أو اجتماعية الا أنها تستعمل مضافة فيقال – مثلاً – (عيد الجيش) أو (عيد الربيع) .. وهكذا، علماً بأن هذا الاستعمال من باب التطور الدلالي للكلمة .

والآخر : أن الكلمات التي اقترحها الدكتور الفاضل لا تدل على المقدار الزمني الذي دلت عليه كلمة (يوبيل) وأوصافها الا اذا وصفت . والوصف في العربية يفيد التخصيص الا أن هذا التخصيص لا يخرج الكلمات المذكورة من العموم الى الخصوص البالغ مبلغ (المصطلح) فتبقى لذلك للكلمة المفردة ميزتان : ميزة الإفراد ، وميزة التخصيص الدلالي الذي يجعلها في مرتبة المصطلح .

3- اما الاستاذ الفاضل عبد المجيد الشاوي فقد قال من جملة ما قال ((.. وفي قراءة متأنية للتوراة توراة الأحبار التي بين أيدينا الملعوب فيها زيادة ونقصاً حتى جعلها الفقهاء عندنا بمنزلة الآيات القرآنية المنسوخة ...)) .

ولنا أن نقف عند تعليقة الاستاذ الفاضل هذه وقفة متأنية ، فمما لا شك فيه أن التوراة المتداولة محرفة كلياً أو جزئياً . ولم أسمع أو أقرأ لفقيه أن جعل توراة الأحبار بمنزلة (الآيات القرآنية المنسوخة). ويعلم المعنيون بالدراسات القرآنية أن مصطلح (النسخ) يطلق على قسمين : (نسخ تلاوة) وهو ما نزل من قرآن على الرسول الكريم ثم نسخ الله تعالى تلاوته ، و (نسخ حكم) وهو إبطال حكم

آية لا نسخها من التلاوة ويكون للناسخ والمنسوخ حكمهما المعروف عند الفقهاء (أنظر على سبيل المثال السيوطي في الاتقان) .
وكلا النسخين – أعني نسخ التلاوة ونسخ الحكم – وحي بالاتفاق فكيف يشبه كلام البشر بوحي منزل من الله تعالى ؟!

4- وقال الاستاذ عبد المجيد الشاوي في موضع آخر : ((واذا ثبت بالبينة التاريخية وبالدليل المنقول أن الاحتفال باليوبيل الفضي واليوبيل الذهبي تراث يهودي ... الخ)) .

أقول : هذا كلام يحتاج الى تأمل أيضاً فالاحتفال (باليوبيل) تراث يهودي وليس الاحتفال (باليوبيل الفضي) أو (اليوبيل الذهبي) لأن هذه الصفة مستحدثة وهو ما أشرت اليه في تعليقتي الثانية .

5- واذا جاز لي أن ابدي رأياً في هذه المسألة فالأرجح عندي أن تغير كلمة (يوبيل) الى كلمة مناسبة كأن تكون كلمة (يوم) مثلاً وأن نبقي على الصفة فنقول مثلاً (اليوم الفضي) للدلالة على مرور خمس وعشرين سنة . و (اليوم الذهبي) للدلالة على مرور خمسين سنة ، و (اليوم الماسي) الدلالة على مرور مائة سنة . ونكون بذلك قد أبقينا على الوصف الذي أكسب كلمة (اليوبيل) للدلالة الزمنية المعروفة في عصرنا ونجونا بأنفسنا من مغبة هذه (الاسرائيليات اللغوية) .

(النخلة) في تراثنا اللغوي والثقافي[10]

لم يعن العرب عنايتهم بشجرة كالنخلة حتى خصّوها باللفظ (نخلة) بدلاً من (شجرة) ، وتوسعوا في ألفاظ الأشجار بالاضافة تخصيصاً سوى النخلة فقالوا : شجرة التين ، وشجرة الزيتون ، وشجرة السدر ... الخ . ولم يقولوا في النخل سوى (النخلة) مفهمين بذلك تعلقها بالرُّطب والتمر .

وشأن النخل في الصحراء شأن النوق والجمال ، رافدين خصبين من روافد الحياة ، ورمزين مقترنين في عين الناظر وبصيرة الشاعر . وربما كان للنخلة النصيب الأوفى فيما اقتسمه اللغويون من أسلاب الرواة الأعراب الوافدين الى حواضر العرب ، فجمعوا عشرات الألفاظ المتعلقة بها وزها الأصمعي وأبو زيد وأبو عبيدة وغيرهم من الجيل الأول بما تناقلوه من ألفاظ ومفردات وأشعار وأخبار ، فاستقوا كلهم بسقاء واحد من بئر واحدة لا ينضب لها ماء ، صحراء ممتدة بامتداد الأفق مع البصر لا قاطع لها سوى الكثبان والواحات والجبال والحرّات (= أرض صخرية صخورها سود) . فوضعوا رسائل في النخل والشجر والكرْم (= شجر العنب) ، كما وضعوا رسائل في غيرها من مظاهر الطبيعة وصنوف الحيوان والنبات . فكانت اللبنة الأولى في صرح المعجم العربي الذي تهيأ له فيما بعد أفذاذ موسوعيون كالجوهري صاحب (الصحاح) والأزهري صاحب (التهذيب)، وأبن منظور صاحب (اللسان) .

---

[10] جريدة العراق (4161) في 19 / أيلول / 1989 .

وحديث النخل ذو شجون ، فقد وردت ألفاظ : (النخل – نخلاً – النخلة – النخيل) في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى في سورة الأنعام آية 99 (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) وقوله تعالى في سورة عبس 27 – 28 – 29 (فأنبتت فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً) ، وقوله تعالى في قصة مريم ومولد المسيح عليه السلام من سورة مريم آية 23 (فأجاءها المخاض الى جذع النخلة) .

ومن أجزاء النخل الواردة في القرآن الكريم (القنوان) كما تقدم في قوله تعالى من سورة الأنعام . والقنوان : عذوق النخل ، واحدها : قنوان ((جمع على لفظ التثنية غير أن الحركات تلزم نونه في الجمع وهي في الاثنين مكسورة)) (القرطين : لأبن مطرف الكناني 68/1) . ومنها : (العرجون) وهو أصل العذق الذي يعوج وتنقطع منه الشماريخ .

وورد اللفظ مرة واحدة مشبهاً به في القمر في قوله تعالى من سورة يس آية 39 (حتى عاد كالعرجون القديم) . ووجه الشبه أن القمر يبدأ هلالاً ثم يكتمل ثم يبدأ يتناقص حتى ينتهي الى ما يشبه الهلال ((فاذا دق وصغر واستقور (= تقوس) فحينئذ يشبه الهلال)) (الجمان في تشبيهات القرآن – لأبن ناقيا البغدادي ص 220 طبع مصر 1974) فشبه الله تعالى القمر في هذه الحال بالعرجون القديم لتقوسه .

والنخلة مباركة لبركة ثمرتها . وجاء في الحديث فيما رواه أحمد بن حنبل في المسند (جـ 2 ص 41) : ((إني لأعرف شجرة بركتها كالرجل

المسلم : النخلة)) ونقل السيوطي في كتابه (التذييل والتذنيب) قوله (ص) : ((أكرموا النخلة فإنها عمتكم))، فجعلها عمة الانسان لأنها ((أشبه النبات بالحيوان لآن كل نبات اذا قطع أعلاه وسلم أصله انجبر الا النخلة فإن رأسها إن قطع لن ينجبر فهي في هذا كالإنسان ، وفيها ذكور وإناث ..)) . والمعروف عن العرب أنها تستعمل ألفاظ العمومة والاخوة والخؤولة بمعنى الشبه فيقولون : هذا الثوب أخو هذا الثوب أي شبيهه .

ومن خصائص النخل في لغة العرب أن الجنة لا تسمى جنة الا وفيها النخل والأعناب ، فإن كانت اشجاراً لا نخل فيها ولا أعناب سميت (الحدائق) ويسمى سائر النبات (الرياض) .

والبستان : جماعة النخل ، وقيل البستان من النخيل اذا كان عليه جدار .

والنخلة اسم جمع كالنخيل وأحدها : نخلة . ولا يسمى النخل شجراً الا على تأويل (سما فشجر) .

وللنخل في المعجم العربي ألفاظ كثيرة متعددة الأبواب والأصناف ، منها ما يرتبط بفسائله وفراخه ونموه وأجزائه وأسماء البلح من حيث تدرجه في النمو وطلع النخل وتلقيحه ، ومنها ما يرتبط بصفاته من حيث حمله وطوله وقصره وصفوفه .. الخ . ومن النخل صغار تسمى الفسائل والفراخ ، فالفسيلة = النخلة الصغيرة اذا اجتثت .

ومن الألفاظ المتعلقة بذلك :

الشرية = النخلة النابتة من النواة . والجمع : شرْي

والفصلة = النخلة النابتة من النواة اذا حولت من موضعها ، والأشاء = صغار النخل ، وقيل : فوق الفسيل ، الواحدة = أشاءة ، والرّئْد = واحد الأرواد وهي فراخ النخل اذا لم تكن من النوى ، والراكبة = الفسيلة تخرج في أعلى النخلة عند قمتها واذا قطعت كان أفضل لاَمّها ، والصّنبور = النخلة تخرج من أصل النخلة الاخرى من غير أن تغرس .

وللنخلة أطوار في نموها فهي إما أن تكون من نواة مغروسة وإمّا من فسيلة مقطوعة من أمها . وتنبت النخلة من (النقير) و (النجمة) وهي النقطة في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة من حبة صغيرة مدورة تكون في ذلك الموضع فاذا نزعت ونجمت فهي نجمة ، ثم تمر النخلة بعد ذلك بمراحل حتى تكتمل نمواً .

ومن الألفاظ الخاصة بهذه الأطوار : الشوكة = اذا كبرت النجمة صارت شوكة، والخوصة = اذا كبرت الشوكة صارت خوصة وتسمى (الخنّاصة) أيضاً . والفرش = تظهر خوصة ثانية ثم ثالثة فاذا صارت ثلاثاً فهي الفرش والسّفيف، ثم يتتابع الخوص ويعرض فيدعى: السفيف وذلك قبل أن يعسب ، والعسيب = هو السفيف اذا كثر خوصه وعسب ، والنسيعة = النخلة أخرجت سعفاً بعد سعف ، والغريسة = الفسيلة ساعة توضع في الأرض فإذا علقت ونشبت بالأرض سميت (العالقة) ، والمؤتزرة = الغريسة اذا مشت فيها الحياة واخضرت وتسمى اللفيفة أيضاً فاذا صار لها جذع تقوم عليه فهي (القاعد) ثم اذا تمكنت في الأرض وغلظت أعجازها سميت (الغلباء) .

ولأجزاء النخلة مسميات كثيرة ابتداءً من جذعها وسعفها وخوصها وانتهاءً الى عراجينها وشماريخها ، وفيما يأتي أهم هذه الألفاظ :

الجذع = ساق النخلة، والعجز = واحد الأعجاز وهي أصول النخل، والكرنافة = واحدة الكرانيف وهي اصول السعف الغلاظ التي تبقى في الجذع بعد قطع السعف ، والكربة = واحدة الكرب وهي أصول السعف الغلاظ العِراض ، والوقل = أصول الكرب تبقى ناجمة في الجذع وهي التي يرتقي فيها المُرتقي ، والقلب = رأس النخلة اللين الذي لم يشتد فيصير جذعاً ، والجمارة = قلب النخلة ، والجمع جمّار ، والسعفة = فرع النخلة وهي بمنزلة الغصن من الشجرة ، وتسمى السعفة الخضراء (شطبة) فاذا جرد عنها خوصها سميت (الجريدة) ، والعسيب = جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط عنها خوصها ، والخوص = ورق النخل ، والنواس ما تعلق من السعف ، والسَّلاّءة = شوكة النخل ، والليف = ما بين الكرب محيطاً بالجذع الى قمة النخلة ، والكباسة = هي من النخلة بمنزلة العنقود من الكرم (= شجر العنب) وتجمع على كبائس ، وتسمى (العِذق) أيضاً . وقيل إن كان فيه رطب فهو عذق . أما العُرجُون الذي ورد ذكره في القرآن الكريم مشبهاً به القمر فهو عود العذق أو العذق اذا يبس وإعوجّ ، والشمراخ = الذي عليه اليسر وأصله في العذق ، ويسمى الشمراخ من طلع فحّال النخل (العيطل) وهو ما تلقح به النخلة .

ومن المعروف أن التمر ثمر النخل الا أنه لا يسمى (تمرا) الا في آخر طور له ويبدأ عادة (بالبلح) وهو ثمر النخل مادام أخضر قريباً الى الاستدارة

الى أن يغلظ النوى، ثم (الطلع) وهو ما يبدو من ثمر النخل في أول ظهوره، ثم (الخلال) وهو البلح بعد التلقيح، ثم (البُسُر) وهو الخلال اذا عظم، وقيل : اذا أخذ في الطول والتلون الى الحمرة أو الصفرة، ثم (المنوي) وهو الخلال اذا خُلق فيه النّوى ، واذا استبان البسر وتدحرج سمي (الحصل) ، ثم (السّدى) وهو البلح الأخضر ، وقيل : هو البسر اذا اشتدّ فيه النوى ونضج وهو أخضر ، ثم (الرّمخ) وهو البلح اذا أرطب ، ثم (القشم) وهو البسر الأبيض الذي يؤكل ، ثم (الرُّطب) وهو البلح اذا أدرك ونضج ولان ، فاذا يبس ثمر النخل سمي حينئذ (تمراً) .

هذه بعض الألفاظ الخاصة بالنخل ، وهناك عشرات غيرها مبثوثة في معاجم اللغة اكتفينا بما هو أهم وأبين للغرض .

ومن طريف القول أن العرب أدخلوا ثمر النخل كالبلح والرطب وبعض اجزائه كالطلع والجمار في العلوم الطبيعية والصيدلية ، فذكروا له خواص من منافع وأضرار وهو ما يدخل في الاصطلاح ضمن (الأدوية المفردة) فمن خواص الرطب كما ذكر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المعروف (توفي سنة 320 هـ) أن الرطب ((يسخن (= يولد الحرارة في الجسم) ويولد دماً غليظاً تسرع استحالته الى الصفراء (= أي يكثر من افرازات الصفراء في المعدة) رديء لأصحاب الأمزاج والأكباد الحارة (= كانوا يرون أن للناس أمزجة مختلفة من حيث الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة) ولمن يسرع اليه الصداع والرمد والخوانيق (= داء في الحلق يسبب عسراً في التنفس) والبثور والقلاع (= التهاب في تجويف الفم) في

فمه والسدد في كبده وطحاله)) . ثم قال : ((وأصنافه كثيرة وأردؤها أغلظها جرماً (= جسماً) وأشدها حرارة وأصدقها (= أكثرها) حلاوة . وليس بموافق في الجملة للمحرورين ، فأما من ليس بحار المزاج ولا ضعيف الأحشاء متهيجها فإنه يسمنه ويُحصب بدنه عليه ولا يحتاج الى اصلاحه (= تقويمه بمعادلات الأدوية) ، (منافع الأغذية ودفع مضارها – ص 199 طبع بيروت 1985) . ومن خواص الطلع والجمار والبلح أنها باردة عاقلة (= قابضة) للبطن ، وأعقلها له البلح ثم الطلع ...)) (منافع الأغذية ص 217) .

آداب الدرس والتدريس في تراثنا الثقافي[11]

القرن الرابع الهجري هو قرن ازدهار الحضارة في التاريخ العربي الاسلامي إذ ترسخت القواعد والأصول التي وضعت في القرنين الأول والثاني الهجريين وظهرت الملامح المنهجية الرصينة في دراسة العلوم والفنون ، فقطعت العلوم الدينية شوطاً كبيراً ولا سيما علوم القرآن والحديث والفقه والأصول . وتطورت علوم اللغة والمعجم والأدب من حيث المنهج والترتيب والتبويب . وازدهرت الحياة العقلية بما اتيح لها من نمو الفكر الفلسفي وكثرة المناظرات في المسائل العقلية الصرفة ، وتطورت بذلك العلوم العقلية وبخاصة علم الكلام والمنطق والفلسفة . وتنوعت ضروب المعارف والفنون وتعددت مناحيها وصار للعلوم الصرفة شأن يذكر كالطب والفلك والعلوم الرياضية والطبيعية .

ومن المعالم البارزة في حضارة القرنين الثالث والرابع أن علم الفقه تميز من العلوم الاخرى ، فاطلقت كلمة (الفقهاء) وصفاً للعلماء في العلوم الدينية في حين استعملت كلمة (العلماء) للدلالة على العلماء في العلوم الدينية . وحدث مثل هذا التفريق الدلالي بين كلمتي (العالم) و (الأديب) . ومنذ القرن الثالث الهجري كانت كلمة (العالم) تعني من يطلب علماً واحداً يتبحر فيه وهو ما نصطلح عليه في يوم الناس هذا بـ (الاختصاص) . أما

---

(11) جريدة العراق 4187 في 17/ تشرين الأول / 1989 .

كلمة (الأديب) فتعني : من يأخذ من كل علم وفن بطرف ويتسع في العلوم والفنون المختلفة على قدر الحاجة ، والكلمة أقرب بذلك لما نصطلح عليه حديثاً بـ (المثقف) . ويوثق صحة هذا الرأي ما قاله ابن قتيبة ، فقد قال : ((من أراد ان يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم)) .

وظل (المسجد) – كما كان – المكان الأنسب لتدريس العلوم المختلفة ولا سيما دروس الفقه وعلم الكلام . وكان الطلاب يجتمعون على هيئة حلقة بين يدي (الشيخ) في حين يتخذ الشيخ مكانة في جانب اسطوانة مسنداً ظهره اليها . وكثرت حلقات التدريس وبخاصة وقت العشاء . ويذكر عن المقدسي (= رحالة جغرافي معروف) أنه أحصى في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة من مجالس العلم .

وذكر ياقوت في كتابه (معجم الأدباء) أن أحد العلماء وهو ابراهيم بن محمد الملقب بنفطويه (توفي سنة 323 هـ) جلس الى اسطوانة بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة لم يغير محله منها .

وظهر في القرن الرابع الهجري إتجاه جديد في اتخاذ معاهد للعلم بدلاً من المساجد. وكان ذلك نتيجة لجملة من الأسباب ، منها كثرة عدد الطلبة ، وعدم مناسبة المساجد لما يجري من نقاش وجدل في المسائل المرتبطة بالعلوم الدنيوية ، وتطور الحضارة المدنية ، وعناية الدولة والأفراد بانشاء دور للعلم مستقلة لها منافعها ونفقاتها الخاصة ، وانتشار طرائق جديدة في تدريس العلوم والمعارف كانت على قدر كبير من المنهجية في ترتيب مواد

المعرفة وتفهيمها الطلاب ، فبذرت بذلك نواة التدريس المنهجي الذي صار له شأن عظيم في القرون المتأخرة عن القرن الرابع الهجري . ومن القضايا الطريفة التي شاعت في هذا القرن أن يلبس العلماء الطيالسة (= جمع طيلسان) : ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن خال من التفصيل والخياطة . وهو أقرب الى (الشال) .. فصار لبس الطيلسان علماً على كون اللابس له من العلماء . وذكر آدم متز في كتابه (الحضارة الاسلامية /321) أن صاحب العلوم الدنيوية كان يسمى (كاتباً) في القرن الرابع الهجري ((وكان يتميز عن العلماء في لباسه ، فكان العلماء يلبسون الطيلسان)) .

وبعد التطور العلمي والمنهجي في التدريس ظهرت آداب وتقاليد أصبحت فيما بعد عرفاً متبعاً عند كثير من الشيوخ وطلاب العلم . وابتدأت صفوة من العلماء في القرون المتأخرة التصنيف والتأليف في بيان العلوم والفنون ومراتبها من حيث الأهمية ، وما ينبغي للشيخ أن يتصف به من صفات خلقية يضاف الى معارفه العلمية وما يترجح به الطالب من الصفات والكمالات ، وكيفية التدريس ، ومكان الدرس وزمانه ، ومراعاة الشيخ للطالب ، والأوقات المناسبة للمدارسة والمذاكرة ... الى غير ذلك من الامور التي كونت في مجملها معرفة مستقلة عرفت بآداب العالم والمتعلم كانت حصيلة لتراث ضخم من تجارب الأولين . وهذا منحىً نعرفه اليوم بأصول التدريس والقضايا التربوية والنفسية المتعلقة به .

ونحن نذكر بعض المسائل المرتبطة بما قلناه ، فمن آداب الشيخ في نفسه أن يتصف بأخلاق في سره وعلانيته ، أهمها خشية الله تعالى . قال ابن جماعة الكناني (تذكرة السامع ص 15) في معنى الخشية : ((دوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله ، فانه (أي الشيخ) أمين على ما أودع من العلوم وما منح من الحواس والفهوم)) .

ومن الصفات الحميدة : الوقار والخشوع والتخلق بالزهد في الدنيا والتقلل منها ، بمعنى أن يكون حبه للعلم ذاته لا أن يكون العلم سبيلاً للوصول الى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة .

وأن يتجنب (خوارم المروءة)، والمقصود بها ان لا يفعل شيئاً يستنكر ظاهراً . ومما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا المعنى قوله : ((رحم الله إمرءاً كف الغيبة عن نفسه)). وأن يتحلى بمكارم الأخلاق . ومن النصوص الطريفة التي ذكرها ابن جماعة في هذا المعنى قوله : ((... معاملة الناس بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه ، وافشاء السلام ، واطعام الطعام ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى عن الناس ، واحتماله منهم ، والإيثار (= أن تؤثر غيرك على نفسك) ، وترك الاستئثار (أن تُؤثر نفسك على غيرك)، والانصاف، وترك الاستنصاف (= طلب النصف بإيقاع العقوبة على من أساء اليك أو ظلمك)، وشكر التفضل، وايجاد الراحة، والسعي في قضاء الحاجة ، وبذل الجاه في الشفاعات ، والتلطف بالفقراء ، والتحبب الى الجيران والأقرباء ، والرفق بالطلبة وإعانتهم وبرّهم ... الخ)) .

ومما ينبغي للشيخ أن يأخذ به الاستفادة ممن دونه سناً وعلماً ومنصباً وان لا يستنكف من ذلك .

وعنيت الكتب المصنفة في آداب التعليم بأخبار وأقوال للسلف الصالح من الصحابة والتابعين وشيوخ العلم في التحضيض على العلم والاقتداء بمن تقدم . هذا فضلاً عما رووه عن الرسول الكريم . ومما تناقلوه في كتبهم ما يروى عن سعيد بن جبير (رض) وهو من أجلة التابعين أنه قال : ((لا يزال الرجل عالماً ما تعلم فاذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون)) .

ومن هذا القبيل استفادة الشيخ من بعض طلابه علماً . وذكروا عن الحميدي وكان من تلاميذ الشافعي (رض) ثم من أصحابه (توفي سنة 219 هـ) أنه قال : ((صحبت الشافعي من مكة الى مصر فكنت استفيد منه المسائل وكان يستفيد مني الحديث)) .

وعلى الشيخ أن يتهيأ لدرسه بجملة من المقدمات . منها : التطهر والتنظف والتطيّب ولبس أحسن الثياب والجلوس على منصة (= كرسي) مستقبل القبلة بوقار وسكينة وأن يجلس متربعاً ، والكف عن التنقل عن مكانه والعبث بيديه ، ويتقي المزاح وكثرة الضحك ، وان لا يدرّس في وقت جوعه أو عطشه أو همّه أو غضبه أو نعاسه أو قلقه ، وأن يبدأ الدرس بقراءة آي من القرآن الكريم تبركاً والاستعادة بالله من الشيطان الرجيم ، والبسملة والحمد والصلاة على النبي وآله وأصحابه والترضي عن أئمة

المسلمين ومشايخه والدعاء لنفسه وللحاضرين ولوالديهم ، والدعاء للواقف اذا كانت المدرسة وقفاً .

وكانت طريقة التدريس السائدة في القرنين الثاني والثالث الهجريين هي طريقة (الاملاء) بأن يملي الشيخ علمه مما يحفظه من غير استعانة بكتاب أو نحوه والطلاب يكتبون .

وكثرت الأمالي في مختلف العلوم ولا سيما علم الكلام . ويحكى أن الجبائي وهو من شيوخ المعتزلة أملى مائة ألف وخمسين ألف ورقة . وأملى أبو علي القالي وهو من شيوخ اللغة المعروفين خمس مجلدات على ما ذكره السيوطي في كتاب المزهر .

وجرت العادة على أن يكتب المستملي في أول القائمة العبارات الآتية أو نحوها : ((مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا)) . وهذا من باب التوثيق بتقييد الاملاء بنصه وشخص المملي ومكان الاملاء وزمانه .

وتغير الحال في القرن الرابع الهجري وترك اللغويون طريقة المتكلمين والمحدّثين في الاملاء وأخذوا يدرسون في كتاب يقرأ منه أحد الطلبة والشيخ يشرح .

وجرى العرف على أن ينظر الشيخ في لائحة الدروس اذا تعددت ويقدم الأشرف منها فالأشرف ، كأن يقدم تفسير القرآن على غيره من الدروس ، ثم الحديث وبعده اصول الدين ، ثم أصول الفقه ، ثم النحو ، ثم المنطق ... وهكذا .

وكان بعض الزهاد يختم الدروس بدرس رقائق وهي دروس أخلاقية ميسرة من عظة وزهد وصبر .

وعلى الشيخ أن يتجنب أموراً في درسه . منها : ذكر مسألة في الدرس وتأخير الجواب عنها الى درس آخر . تقصير الدرس تقصيراً مخلاً أو إطالته إطالة مملة . رفع الصوت زائداً على حده او خفضه بحيث لا يسمعه الحاضرون في آخر المجلس والاولى كما ذكر ابن جماعة ((أن لا يجاوز صوته مجلسه ولا يقصر عن سماع الآخرين)) واستأنس في ذلك بما يروى عن الرسول الكريم من أن كلامه ((كان فصلاً يفهمه من سمعه وأنه اذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً لتفهم عنه)) .

وجرت العادة أيضاً على أن يكون للشيخ (مستمل) في مجلسه ولا سيما المجالس الكبيرة المزدحمة بالطلاب واجبه استنصات الحاضرين وإعادة كلام المدرس ليسمعه القاصي . وكان المستملي يجلس على مكان مرتفع .

أما (نقيب الدرس) فشأنه ترتيب الحاضرين وإيقاظ النائمين والأمر بسماع الدروس والانصات لها . وسمح للطالب في المجلس أن يقف ويسأل المدرس كما بدا له. وكان على الطالب أن يحضر معه محبرة وقلماً وورقاً لاستنساخ ما يملى عليه في المجلس فاذا دخل وجلس وضع محبرته أمامه لذلك كان عدد الطلاب يعرف عادة بإحصاء ما أمامهم من المحابر .

ومن العادات الطريفة المرورية عن القرن الرابع الهجري (متز 1/ 333) أنه اذا مات الشيخ أو العالم كسر تلاميذه المحابر والأقلام وطافوا في البلد نائحين مبالغين في الصياح)) .

ومن آداب الشيخ في طلابه والحاضرين أن ينصف السائل ولا يترفع عن سماعه وان كان صغيراً ويجيبه على أتم وجه ، والتودد للغرباء ، واذا دخل المجلس عالم أو فاضل والشيخ يبحث في مسألة أمسك عن التدريس الى أن يجلس ثم أعاد عليه البحث في تلك المسألة اكراماً له ، واذا أوشك المجلس على نهايته ودخل احد العلماء أو الفقهاء اشتغل الشيخ ببحث أو غيره لكي لا ينصرف الباقون ويخجل الداخل بقيامهم منصرفين .

ومن آداب الشيخ في طلابه التلطف معهم في تفهيم المسائل وتقريب المعنى الى الأذهان ومراعاة المساواة بين الطلبة ، والاستفسار عن أحوال الغائبين والعيادة للمرضى منهم ... الخ .

وكانوا يتخيرون أوقات الضحى ووسط النهار وأول الليل للدراسة والتدريس . وفضل الجاحظ في رسالته عن المعلمين (مجموع رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون 30/3) ساعات الأسحار للحفظ والمطالعة . قال : ((وأما الساعات فالأسحار دون سائر الأوقات لأن ذلك الوقت قبل وقت الاشتغال، وبعقب تمام الراحة والجمام (=الراحة)، لأن للجمام مقداراً هو المصلحة كما أن للكد مقداراً هو المصلحة)) .

وقسم ابن جماعة الكناني أوقات البحث والكتابة والمطالعة على النحو الآتي في قوله : ((وأجود الأوقات للحفظ الأسحار ، وللبحث الأبكار ، وللكتابة وسط النهار ، وللمطالعة والمذاكرة الليل)) .

العربية والمصطلح الدلالي[12]

أود أن اذكر بعض ما أراه مفيداً تعقيباً على ما قاله الدكتور سيار كوكب علي لأن غايتنا جميعاً الفائدة والاستفادة . وأرجو من الكاتب الفاضل أن يعينني على ما سأستدركه بالتفاتة متأنية الى جمل وعبارات وأفكار ذكرها في مقاله أرى ان غيرها أصلح منها وأوفق لبيان الرأي ومعالجة الموضوع لذا استوجب أن اقسم مقالي هذا الى قسمين : أحدهما يتناول المصطلح الدلالي ، والآخر جملة من الاستدراكات على كاتب المقال الآنف الذكر أضمنها مفهوم الأصالة اللغوية في مواضعات علم اللغة الحديث .

وأبدأ – مستعيناً بالله – بالقضية الأولى فأقول : ان موضوع (المصطلح الدلالي) من القضايا المهمة في التطور اللغوي الذي حصل في جميع اللغات المتداولة ولا سيما اللغات التي تعاقبت عليها الأجيال وشهدت مراحل حضارية مختلفة . وليست العربية بدعاً من بين اللغات فيصيبها من التطور ما لا يصيب غيرها ، وهذا قانون ثابت اتفق عليه جميع العلماء والباحثين في علم اللغة (التاريخي) . ومن المسائل المرتبطة بالتطور الدلالي مسألة المصطلح الدلالي . وللعربية في هذا المجال تاريخ طويل ، فمنذ عصر الرسالة ونزول القرآن الكريم بدأت العربية مرحلة جديدة في تاريخها وظهرت مئات الألفاظ المتضمنة معاني جديدة لم يألفها العرب قبل الاسلام

---

[12] جريدة الجامعة (46) في 29/ تشرين الثاني / 1989

ولا سيما (الألفاظ الاسلامية) كالقرآن والسورة والآية والصلاة والصوم والزكاة والخمس والأنفال والحدّ والتعزير والقود ... الخ .

وأضافت القرون الأربعة الهجرية الاولى مئات من الكلمات الاخرى ذات المدلول الثقافي والعلمي فظهرت مصطلحات اللغة والنحو والصرف والأدب والعروض والعلوم العقلية كعلم الكلام والمنطق والفلسفة وعلوم الفلك والطب والصيدلة والهندسة والحساب . وأضافت اليها القرون المتأخرة مجاميع كبيرة من الألفاظ والمصطلحات والعبارات لعلوم وفنون سمع ببعضها (المثقف العربي) وغابت عنه معظمها ويكفي أن اشير الى كتاب يحوي مجمل العلوم المذكورة لمن أراد المزيد من الاطلاع وهو كتاب (مفتاح السعادة) لطاش كبرى زادة وهو مؤلف تركي الأصل عربي الثقافة خدم العرب والعربية بدقة العبارة ووضوح المعنى بما لا مزيد عليه عند الباحثين والمتخصصين .

وكانت العربية في عصورها المختلفة تتلقف الكلمات والمصطلحات وتستوعبها دلالة وبناءً صوتياً وصرفياً ، وشاع كثير منها على ألسنة العلماء وتناقلتها أقلامهم وسودوا بها عشرات من الرسائل والكتب والمجلدات. كل ذلك والمعجم العربي غفل عنها . وهذه نقيصة النقائص، فلو أتيح للمعجم العربي أن يتخطى عصر الاستشهاد (القرن الثاني الهجري) لعثرنا بين صفحاته على آلاف الكلمات والمصطلحات في العلوم والفنون المختلفة ولكن حصل ما لا ينفع الأسف عليه ولا الحزن .

وكان من شأن العربية أن تخرج من هذا الخضم الهائل من الكلمات والمصطلحات بجملة معايير صوتية وصرفية ودلالية ، وهذا بيت القصيد ؟

وبدأت في قرننا هذه النهضة الثقافية في البلاد العربية ببعث الآداب والعلوم والفنون القديمة ، أو ما بقي منها على الأرجح ، وما بقي الا قليل ، والافادة من علوم الغرب وصناعاتهم وآدابهم بالترجمة والدراسة في معاهدهم والاقتباس من حضارتهم المادية في المأكل والمشرب والملبس والآلات والأدوات ... الخ فظهرت ألفاظ ومصطلحات وعبارات كتب لبعضها البقاء ودارت على بعضها الاخر رحى الفناء .

وأصبح اللغويون العرب تجاه ما يفد اليهم من اللفظ الدخيل والمصطلح الأجنبي فريقين :

فريق متمسك بالعرف والتقليد والمحاكاة يأبى كل جديد وان كان نافعاً ، وفريق فتح فاه لأقصاه يستبطن ما يرميه الغرب في جوفه من غث وسمين يخضم تارة ويقضم اخرى، فاحتدم الصراع بين الطرفين وطال الصخب والقيل والقال . كل ينتصر لرأيه ويستصوب منهجه دون ان يحتكم أي الفريقين الى العقل والمنطق المتمثلين في (طبيعة اللغة) باعتبارها مجموعة من الرموز المصطلح عليها عند فئة من الناس يتناقلون بوسيلتها الأحاسيس والأفكار ويتفاهمون فيما بينهم لتحق كلمة الله تعالى فيهم بأنه خلقهم (شعوباً وقبائل) ليتعارفوا .

وانشأت بعد ذلك المجاميع اللغوية ، وبدأت روافد من العلوم اللغوية الجديدة ترفدها ولا سيما ابتداءً من عقد الأربعين ، فتأملت فيما وصل اليه

هذا العلم في معاهد الغرب فوجده بعضهم نافعاً مفيداً للعربية التي تعد من اللغات القديمة الثرية بشهادة الغريب والصديق والمؤالف والمخالف .

وكانت مشكلة المصطلح الدلالي وتعريب الألفاظ الدخيلة من المهمات التي اكتسبت الأولوية في المجامع العربية وبخاصة مجمع القاهرة . ووضعت اسس مهمة لمعالجة الموضوع . وكان الشغل الشاغل (للقاهريين) أن يكون للعربية معجم تاريخي على غرار معجم أكسفورد وابتدأوا يخطون الخطوات الأولى ولكن بعد ثلاثة عقود او أكثر توقف العمل فيه فأصبحت العربية تفتقر الى هذا المعجم الذي لو استكملوه لكان خير معين لها في (تقعيد) الأصول ووضع الأسس التي تستند اليها في مسألة البت في المصطلح الدلالي ولا سيما معربات العلوم والفنون .

وتخطت المجامع اللغوية بعض العقبات ولكنها لم تصل حتى الآن الى حل لهذه المشكلة يرضاه الجميع ويستسيغه المتكلم بالعربية لأن الفيصل في كل ما قلناه وما نقوله هو (المجتمع اللغوي) وليس (المجمع اللغوي) ، فالمصطلح قد يشيعه فرد أو أفراد فيلقى قبولاً أو رفضاً ويعيش في أفواه الناس أو يموت ، فان كتبت له الحياة والديمومة دخل المعجم ولا نازع له من المعجم ولو اجتمعت الدنيا كلها . وهذا أمر أقرّه العلم اللغوي الحديث وصار (كالقانون الرياضي) .

اما في العراق فقد ظهر في السنين الأخيرة إتجاه واضح للعناية بالمصطلح الدلالي والمعربات فأدلى كل بدلوه ووجدت على أوراق الصحف والمجلات وبعض الكتب والرسائل أفكار وآراء ومحاولات بعضها مفيد مبهج

وبعضها سقيم فج . وكأن المسألة مركونة بمعزل عن (مجمع لغوي) يفترض فيه وضع البرامج العلمية المبنية على الوصف والاستقراء ثم القياس ويأتي بعد ذلك كله (التقعيد) و (التأصيل) ليكون على نحو موضوعي علمي فيبقى أن يقبله (المجمع اللغوي) ليس على نحو (الفاضلية) و (الفاضل) و (العليم) و (الحكيم) . ولست أدري أين كان المقترح الفاضل من كلمة (إجازة) التي بقيت مصطلحاً لعدة قرون في علم الفقه ورواية الحديث ثم انتقلت منهما الى علوم أخرى ؟ !

ولست أدري ما الضير في استعمال كلمة (ماجستير) أو (دكتوراه) ؟ اليستا كألفاظ موجودة في تراثنا الثقافي (كالاسطقس) و (الاصطرلاب) و (الزرنيخ) و (الكبريت) ... الخ ؟

أو لم ترد في القرآن الكريم – وهو كتاب الله تعالى - الفاظ : كـ (البرزخ) و (إبليس) و (الفردوس) و (الاستبرق) و (المشكاة) و (جبريل) و (ميكال) و (ابراهيم) و (اسحق) ... الخ ؟

وبقي أن نسأل ما المعايير الأساسية لاستحداث المصطلح الدلالي عربياً كان أو معرباً ؟

وهذا سؤال يسهل على الفرد الاجابة عنه ويستحيل عليه العمل به . لأن المسألة ينبغي أن يتصدر لها جمع من المتخصصين ذوي الكفاية يعملون على حسب منهج علمي قويم ثم يقدم بعد ذلك بضاعته الى (السوق) وأعني به جمهرة الناس بعد بث الوعي اللغوي فيها فان تقبلتها دخلت في العرف

اللغوي وان رفضتها طواها النسيان من الذاكرة اللغوية بغض النظر عن مدى الصحة القواعدية او الدلالية للكلمة .

وأكتفي هنا بذكر أهم الاسس التي يجب الأخذ بها عند وضع المصطلح الدلالي بما في ذلك الألفاظ المعربة :

1- البنية الصوتية : تخضع العربية وغيرها من اللغات الى تحوير الوحدات الصوتية في الألفاظ الدخيلة بحيث تتلاءم مع بنيتها الصوتية ولا سيما الوحدات الصوتية التي لا مقابل لها في العربية . وينبغي لواضع المصطلح إذ أراد اقتراض كلمة ما من لغة أجنبية أن ينظر في هذا الأصل لأنه في غاية الأهمية وعليه أن يستبعد حروفاً نحو (g) في كلمة go ، و (ch) ، و (v) ، و (p) ... الخ .
2- البنية الصرفية : وتخضع العربية أيضاً الى تغيير الوحدات الصرفية للألفاظ المقترضة بحيث تتلاءم مع بنيتها الصرفية وأعني بها المقاطع الصرفية . وللألفاظ في العربية أوزان قياسية واخرى سماعية جمعها النحاة والصرفيون في كتبهم فينبغي للمعرِّب أو واضع المصطلح اذا أراد اقتراض الكلمة بلفظها ان يخضعها الى البنية الصرفية بحيث لا تخرج عن أوزان العربية المعروفة . ويكثر التغير الصرفي في الألفاظ ذات الأصول الأجنبية التي تحورت بنيتها كثيراً. بحيث خفيت على كثير من الناظرين ولدينا أمثلة لذلك في العربية القديمة منها وزن (فاعول) كفانوس وشاقول وناعور و ساعور وساهور ... الخ .

3- الدلالة : المصطلح الدلالي هو أن تستعمل الكلمة بمعنى اصطلاحي مستقر في أذهان الناس كأن تكون من ألفاظ العلوم أو الفنون أو الآداب المعروفة عند المتخصص بحيث لو اطلقت لفهم جميع المعنيين المقصود بها . ويعني ذلك تواضع الناس على المعنى ولا يتم ذلك الا بعد مراحل زمنية طويلة قد تبلغ عشرات السنين . والألفاظ المعربة التي تستعمل استعمال المصطلح الدلالي لها معان في لغاتها الأصلية وغالباً ما تتغير هذه المعاني حيث تنتقل الألفاظ الى الاستخدام في العربية إما بتغير مجالها الدلالي كأن تنقل من مجال الى آخر وإما بالتغير الدلالي كأن تنقل من العموم الى الخصوص . ولا يستغني واضع المصطلح (المُعرّب) عن فهم دقيق لمعاني الألفاظ في أصول لغاتها لكي يكون على بينة حين إرادة الوضع .

4- الاشتقاق : الألفاظ المعربة ولا سيما المصطلحات منها قد تخضع للاشتقاق بعد تعريبها ، وقد تبقى على حالها جامدة . وعلى واضع المصطلح أن يجتهد بالطرق اللغوية المنهجية في اخضاع الكلمة الى الاشتقاق لكي يتسع استعمالها الوظيفي في الجمل يضاف الى ذلك ما تحمله من معان فيتسع بذلك استعمالها التعبيري .

5- التركيب : من المفيد أن يستعمل التركيب أو النحت أو ما يشبههما في وضع المصطلح على أن لا يبالغ في المسألة ، فاستعمال عبارة (برمائية) أو قولهم (اللافقريات) مفيد ونافع . ولكي تحصل الفائدة

من التراكيب معنى واصطلاحاً وشيوعاً بين المتكلمين يجب اعتبار السهولة في التلفظ بتيسير المقاطع الصوتية والصرفية .

بعد هذه الملحوظات السريعة والمختصرة أعود الى القسم الثاني من مقالي وهو جملة من الاستدراكات اللفظية والموضوعية أرجو من الدكتور الفاضل الا يحملها على محمل النقد أو التوجيه – معاذ الله – فكلنا طالب علم وجل من لا يسهو . ويقيني أن حبه للمعرفة سيمنحه الحلم فيتحقق ويتدبر . وألخص ما رأيت من ذكره فائدة بملحوظات ، منها :

1- إنّ الدعوة الى تيسير العربية أمر يرضاه الجميع . وروي عن الرسول الكريم (ص) أنه كان يبغض (المتشدقين والمتفيهقين) وغريب أن نلحظ معاً في الآونة الأخيرة بعض المتخصصين لا عمل له سوى تتبع سقطات الآخرين وينشر بين الحين والآخر تصويبات وتصحيحات يظن أنها نافعة وتبدو له صحيحة وكأنه بذلك (سيبويه عصره) . هؤلاء وأمثالهم لا نجد لهم بحثاً رصيناً أو كتاباً جديداً ، والنفس أمّارة بالسوء جبلها الله تعالى هكذا ليميز الخبيث من الطيب الا أن الزّبد يذهب جفاء وما ينفع الناس باق . أقول ذلك ولكنني أرى أن (التيسير) غير (التعطيل) ولا يمكن أن نسلب العربية بدعوى التيسير بنيتها الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو أن نضيف الى معاني ألفاظها ما لا طاقة لها بتحمله فيكون ذلك خلافاً لسنن التطور اللغوي . وقد توقفت عند ألفاظ لصاحب المقال لا أريد أن احكم عليها بالصواب او الخطأ أو أتحكم بإبداء رأي ، فالرأي لا يسمى رأياً حيث

يقرن بالتحكم ولكنني استوقف الكاتب الفاضل عند ألفاظ وعبارات مثل : (اشكاليته) و (التشرنق) و (متشرنقة) و (العصرنة) و (الممارسات الماضوية) و (النهضوية) و (كلاسيكها) و (التقولب) و (لهجوية) و (جلفية) و (اللهجويات) و (تراتبياً) ... الخ .

2- قال الكاتب الفاضل : ((.. هكذا سنجد بأن التفكير اللغوي العراقي قد بقي في عزلة شبه تامة عن ذلك ...)) يعني عزلة التفكير اللغوي في العراق عن مشكلة المصطلح الاجنبي وعمل المجامع اللغوية في حل الاشكال .

أقول : صحيح أن ما عمله المجمع اللغوي في العراق لا يقارن بما عمله المجمع في القاهرة – مثلا – الا أن من المبالغة وصف التفكير اللغوي بالعزلة التامة لأن في ذلك هدراً لأعمال مفيدة مهمة قام بها لغويون افاضل .

3- قال كاتب المقال : ((لقد استخدم العرب على مدى عشرات السنين أدوات الغرب التكنولوجية ، ومنها وسائل الاتصالات والمواصلات والأجهزة والأدوات ... الخ رفقة مسمياتها وقد غدت اليوم مغروسة في الذهنية العربية كجزء من حالة الوعي بها بعد معايشتها على مر اجيال ثلاثة وأربعة صادفت خلال أكثر من ثمانين سنة مالم يصادفه العرب الأجداد على مدى أكثر من ثمانية قرون من تاريخهم ...)) .

أقول : لو قورن ما دخل العربية قديماً من ألفاظ العلوم والفنون المختلفة بما دخلها حديثاً من أسماء الآلات والأدوات والأجهزة المستحدثة في الغرب لكانت المقارنة كمن يقارن نهراً ببحر فالأمر

على خلاف ما تفضل به الكاتب ، وقد تقدم في هذا المقال الحديث على مئات الألفاظ والمصطلحات المبثوثة في كتب الأجداد ، والمطلعون على بينة من ذلك الا أن من نقائض المعجم العربي عدم تدوين مثل هذه الألفاظ والمصطلحات .

(العربية) والسلامة اللغوية[13]

شغل الناس في أيامنا هذه بمسألة عرفت في الصحف والمجلات بـ (السلامة اللغوية) . وهي مجموعة من النصائح والارشادات تصدر عن مختص باللغة وغير مختص وتعنى بما ينبغي للكاتب بالعربية من تقويم لسانه عن الخطأ في كلام أو مقال بتصحيح بعض الجمل والعبارات او ترجيح وجه من أوجه استعمال اللغة .

وليست المسألة محدثة كما قد يتوهم بعض الناس وإنما هي قديمة تعود الى القرن الثاني الهجري ، فقد شعر اللغويون في هذا القرن وما تبعه من قرون، بحاجة الى ارشادات عامة مبتسرة لتصحيح ما رأوه خطأ في الاستعمال اللغوي ولا سيما المفردات، فبدأوا بوضع رسائل صغيرة عن (لحن العامة) أو (ما تلحن فيه العوام) . وللكساني رسالة صغيرة في هذا المعنى . ثم توسعت تلك الرسائل الى كتب تجمع ما كان شائعاً في العصر من أساليب كتابية وبيان الصحيح فيها وتمييز الخطأ منها وما يجب ان يقال وما يجب ان لا يقال وأوجه الصواب والخطأ في استعمال بعض الكلمات ورسمها وسرد مجاميع من الألفاظ التي يحتاج اليها الكاتب أو المنشئ في الكتابة ومقدار ما يجب عليه معرفته من علوم اللغة وفنون الأدب والمعارف العامة .. الخ . وهيأ ذلك كله لمجموعة من الكتب المعنية بشؤون الكُتّاب والمنشئين ، فألف أبن قتيبة كتابه الموسوم بـ (أدب الكاتب) الذي عرف

[13] جريدة العراق (4234) في 11/ كانون الأول / 1989 .

عند شيوخ الأدب فيما رواه أبن خلدون في المقدمة أنه احد الدواوين الأربعة (= الكتب الأساسية المعتمدة) يضاف الى البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد والأمالي لأبي علي القالي . وتصدى اللغويون لكتاب أبن قتيبة بالشرح والتحليل والنقد والقدح فألفوا شروحاً عليه اشتهر منها شرحان أحدهما لأبي منصور الجواليقي والآخر لأبن السيد البطليموسي .

وألف لغويون آخرون كتباً معنية بجمع ما يحتاج اليه الكاتب من الألفاظ موزعة على حسب الموضوعات واشتهر من هذا القبيل كتاب مبادئ اللغة للاسكافي والألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني وفقه اللغة للثعالبي وكتاب (الألفاظ) لأبن السكيت . ومن الكتب المعنية بلحن العامة كتاب (لحن العوام) لأبن بكر الزُّبيدي ، ويعد من هذا القبيل أيضاً كتاب تثقيف اللسان لأبن مكي الصّقلّي وتقويم اللسان لأبن الجوزي .

هذه شذرات قليلة وأمثلة يسيرة لعناية اللغويين العرب قديماً بالسلامة اللغوية . أما ما حصل حديثاً بعد النهضة الثقافية في الوطن العربي فأمر نلحظ فيه كثرة التخليط وضياع الفائدة والافتقار الى المنهج بالاستعانة بالمعارف اللغوية الحديثة . على أنه جرت محاولات مفيدة في مصر بشأن تيسير النحو في العقدين الرابع والخامس من هذا القرن تضمنت أيضاً شيئاً من حركة التصحيح . وكان من أهم ما عمله المجمع اللغوي في القاهرة النظر في مشكلة (التعريب) والمصطلح الدلالي مبتغياً بذلك وضع معجم تاريخي للغة العربية الا أن عمله توقف بعد الخطوات الاولى . وتصدر بعض اللغويين في العراق حركة التصحيح وكان من أبرزهم الأب أنستاس ماري

الكرملي والمرحوم العلامة الدكتور مصطفى جواد الا أن عملهما اتسم بالمبالغة حتى أخذا يستدركان على شيوخ اللغة والأدب المتقدمين ما لا يسعهما فيه الاستدراك . وحدث بعد ذلك أن دخلت المعارف اللغوية الحديثة الغربية المنشأ الفكر اللغوي العربي عن طريق الموفدين للدراسة من الأقطار العربية الى أمريكا والبلدان الأوربية فتسربت مناهج البحث اللغوي الحديث ولا سيما المنهج الوصفي الى المناهج القديمة المعيارية وتفرغ جمع من المحدثين وأغلبهم من مصر لتطبيقها على العربية فأفادوا واستفادوا . الا أن حركة التصحيح – اذا جاز لنا أن نطلق عليها هذه التسمية – بقيت منعزلة عن المناهج الحديثة ، وكان ينبغي للمعنيين بها أن يلتمسوا ضالتهم في المعايير اللغوية الحديثة لما يمكن أن نسميه بالسلامة اللغوية ، فكثر الصخب بينهم وضل الحوار العلمي طريقه الى احتدام الجدل بين موافق ومخالف ومفارق ومؤالف ، ورأى بعضهم في هذه (السلعة) فائدة ووجد سوقها نافقة فصار لا هم له سوى تصيد الهفوات وتتبع السقطات ونصّب من نفسه شيخاً (للفتيا اللغوية) وكأن المسألة كلمة تقال وعبارة تنمق .

وبقي أن نسأل بعد هذه المقدمة ما المعايير الأساسية للسلامة اللغوية في العلوم اللغوية الحديثة ؟ أو كيف تنظر هذه العلوم فيما نسميه بالسلامة اللغوية ؟ ويتضمن الجواب عن هذا السؤال شرح امور شرحاً موجزاً ، أهمها ما يأتي :

1- المعيار التاريخي : أن للغة تاريخاً شأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية والمعرفة البشرية . وما دامت اللغة مرتبطة بالانسان فلا

يمكن تصورها منقطعة عن السير التاريخي . وهذه مسألة تنطبق على اللغات جميعها بما فيها العربية . وتطورت في القرن الثامن عشر الميلادي دراسات أوربية في مجموعة من اللغات استخدم فيها الباحثون منهجاً عرف بالمنهج التاريخي ، فدرسوا مجموعة اللغات الهندية الأوربية ومجموعة اللغات السامية ومجاميع من اللغات الجرمانية وغيرها . و (الحركة) هي الأساس الذي يقوم عليه المنهج التاريخي ويقصد بها النظر في اللغة الواحدة أو مجموعة اللغات في أوقات متلاحقة والكشف عن المتغيرات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية فيها ، اذن ما يمكن أن نسميه (خطأ شائعاً) ينظر فيه بحسب هذا المنهج على أنه (تغير تاريخي) أو (تطور تاريخي) ، ولدينا أمثلة كثيرة في العربية ، منها تغير صوت الضاد الذي اختفى من النطق واختلط بنطق الظاء أو الدال المفخمة أو الزاي المفخمة في اللهجات العربية المعاصرة ، وتغير صوت الجيم الذي ينطق في بعض اللهجات العربية المعاصرة قريباً من الصوت (g) في الانكليزية في كلمة (go) أو (ch). ومنها تغير كلمة (مستهتر) ، فقد كانت تعني قديماً المولع بالشيء ، ولا يخفى على أحد معناها المعاصر وما تدل عليه من صفة قبيحة ... الخ .

2- المعيار الوصفي : وهو منهج شاع استعماله في هذا القرن ويقوم أساساً على نظرة (الثبات) في اللغة بمعنى دراسة مدة محددة من تاريخ لغة ما أو مجموعة من اللغات . وتكون الدراسة بوصف الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية للغة ولا يعنى كثيراً بالمعنى

لعدم خضوعه الى المعايير العلمية الدقيقة التي وضعها هذا المنهج في دراسة المستويات الاخرى ولا سيما الأصوات . وأهم ما فيه ظاهرة الوصف فهو يتجنب القول بالخطأ أو بالصواب وانما يصف الظواهر اللغوية فقط ، وعليه يمكن أن نصف كثيراً من الظواهر اللغوية التي تعد من باب الخطأ بحسب المنهج المعياري أي منهج علم اللغة التقليدي كالنحو العربي مثلاً ، فالظاهرة ما دامت جماعية فهي موصوفة ولا يحكم عليها بالخطأ وبهذا الاعتبار يمكن أن ننظر في مسائل من قبيل الخطأ الشائع ، على أن المخالفة اذا كانت فردية أو مغايرة لأصول البناء اللغوي فليس لنا أن نحكم الا بوصفها هكذا وتكون حينئذ من الخطأ .

3- المعيار التحويلي : المنهج التحويلي في دراسة اللغة يعود الى اللغوي (جومسكي) الذي درس بعض اللغات الشرقية القديمة واطلع على المنهج التاريخي والوصفي ثم أقام نظريته على أساس العودة الى المعايير العقلية متأثراً بمنهج (ديكارت) الفيلسوف الأوربي المعروف . وقوام نظريته تتلخص في مسألة مهمة هي مفهوم (البنية العميقة) للغة ومفهوم (البنية السطحية) ، فبالتعرف على البنية العميقة يمكن للأنسان أن يولد جملاً لا نهاية لها ، ولذلك عرفت نظريته (بالتوليدية التحويلية) لتحويل البنى العميقة الى بنى سطحية . وفي (الفكر اللغوي الأصولي) عند النحاة العرب شيء قريب من هذا المعنى وان لم يصرحوا به . ويعنينا من هذا الموضوع الحكم على الأخطاء الشائعة ، فان كانت من قبيل البنية العميقة فهي

خطأ ويشار اليه بأنه مخالف لقواعد هذه البنية ، ويمكن توضيح هذه المقولة ببناء الجملة العربية ، فالبناء الأصلي لها ائتلاف بين اسمين أو بين فعل واسم أو بين اسم وفعل ويتولد عن هذه الأصول عدد لا حصر له من الجمل ، وليس من البناء الأصلي – مثلاً – ائتلاف بين حرفين من حروف المعاني (الأدوات) ، فلا يصح أن يقال : (من والى البيت خرج ودخل) .

ونستنتج مما تقدم شرحه القضايا الآتية :

أ- الحكم بالخطأ في كثير من الموارد مناف للمناهج اللغوية الحديثة .

ب- الحفاظ على البنى الأساسية للعربية أساس السلامة اللغوية مع الحفاظ قدر الامكان على البنى السطحية لها ولا سيما تراكيب الجملة العربية .

ت- حجر العربية على القديم سلب لروح اللغة .

ث- اللغة شيء والكلام شيء آخر . ومعيار (الانضباط) اللغوي – اذا صحت هذه العبارة – بث الوعي اللغوي بحيث يمكن للمرء الا يصاب (بالازدواجية اللغوية) وأعني بها الخلط بين الفصيح والعامي .

الزراعة و (علم الفلاحة) في التراث[14]

الزراعة والانسان صنوان لا يفترقان ، فمنذ أن خلق الله الخلق، واستعمر الانسان الأرض كانت الفلاحة والزراعة . لأن بهما قوام الحياة ومنهما طعام الانسان ، فلا خلق من غير خالق ولا انسان من غير زرع .

وذهب كثير من المعنيين بعلم الحضارات الى أن الانسان اعتمد النبات مصدراً للطعام في أول الأمر ثم اعتمد بعد ذلك الحيوان . ونشأت عند بعض الامم أوهام ومعتقدات مرتبطة بأنواع من الأشجار والنبات ، فعرف ما يصطلح عليه (بالطوطمية) التي ما تزال موجودة في بعض القبائل القاطنة في غابات أفريقية وقبائل أخر من الهنود الحمر . والطوطمية هذه عقيدة بانحدار العشيرة أو الفخذ أو القبيلة من أصل حيواني أو نباتي كأن يكون شجرة أو ثمرة أو نبتاً ، وتتفاوت تلك القبائل في أصولها ، وكلٌّ يقدس أصله ويتخذه الهاً يعبده ويتقرب اليه . أما الشعوب السامية التي استوطنت شبه الجزيرة العربية وأطرافها ونواحيها فقد اختلفت عنايتها بالزراعة والفلاحة من أمة الى اخرى تبعاً للأرض والحاجة والاستقرار ، فالأمة التي عاشت حياة مستقرة في أرض خصبة وافرة الماء اشتغلت بالفلاحة والزراعة وعنيت بهما عناية كبيرة كسكان وادي الرافدين ، والشعوب التي استوطنت بلاد الشام وارض فلسطين . والأمة التي استوطنت أرضاً صحراوية شحيحة الماء وعاشت حياة البداوة في حل وترحال دائبين لم تعن كثيراً بالزراعة ،

---

[14] جريدة العراق

وكان هذا شأن العرب في تاريخهم البعيد . وبعد ظهور الاسلام وتوحيد الكلمة وجمع الشمل والاستقرار في الأرض وقيام الدولة بات أمر الزراعة عند العرب خلافاً لما كان عليه ، فالتطور السياسي والحاجة الاقتصادية والنقلة الحضارية وظهور المدن الكبيرة أسباب دعتهم الى الاهتمام بفلاحة الأرض وزراعتها واستثمار خيراتها .

ويعنينا في هذا المقال بيان شيء من التراث المرتبط بالفلاحة والزراعة في تاريخنا العربي والاسلامي لاظهار أهمية الموضوع وتوضيح بعض جوانبه وخصائصه :

وأبدأ بالاشتقاق اللغوي لكلمة (فلاح) وأقول : إن المصادر اللغوية أشارت الى أن كلمة (فلاح) مشتقة من (الفَلح) وهو مصدر : فلحت الأرض اذا شققتها للزراعة . يقال : فلح الأرض يفلحها فلحاً : اذا شقها للحرث . والفلاح : الذي يفلح الأرض أي يشقها وحرفته : الفلاحة ، والفلاحة : الحراثة . هذا ما ذكره أبن منظور في اللسان وغيره من أصحاب المعجمات (اللسان (فلح) 382/3) . ولكني وجدت من أشار الى غير ذلك وجعل كلمة (فلاّح) مشتقة من (الفَلاح) بمعنى البقاء ، وقد اعتمد صاحب مفتاح السعادة هذا الاشتقاق (مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ص 307) .

والمعنى الأول أوجه وأقرب الى الاشتقاق وعليه اعتمد معظم اللغويون وان كان أصل المادة (ف ل ح) دالة على البقاء والفوز والنجاح ، ومنها قولهم في الأذان (حي على الفلاح) .

وبعد أن تبوأت الفلاحة منزلاً بين العلوم ودخلت معاجم المصطلح الدلالي عُرِّف بها على أنها ((علم يُتعّرَف منه كيفية تدبير النبات من أول نشوئه الى منتهى كماله باصلاح الأرض إما بالماء و إمّا بما يخلخلها ويحميها من المُعفَّنات كالسماد ونحوه، أو يحميها في أوقات البرد مع مراعاة الأهوية)) . ويستفاد من هذا التعريف أن عناصر علم الفلاحة أربعة : الأرض والماء والسماد والهواء .

ووردت في القرآن الكريم ألفاظ لبعض الأشجار والنبات والثمار، ففي ففي قوله تعالى مخاطباً آدم عليه السلام وحواء (ولا تقربا هذه الشجرة) ذهب كثير من المفسرين الى أن المقصود بالشجرة : (البُرّ) ، وهو الحِنْطة . والعرب تطلق الشجرة في لغتها على النبات باختلاف جِرْمه وهيئته من طول وقصر أو ضخامة وصغر . وأقسم الله تعالى بـ (التين) و (الزيتون) وهما شجرتان أو ثمرتان معروفتان على رأي من فسرهما بذلك الا أن بعض المفسرين ذهب الى أن المراد بهما جبلان في سيناء واستدل بقوله تعالى بعد ذلك : (وطور سينين) . و (الطور) : الجبل ، و (سينين): سيناء .

وفي الحديث النبوي الشريف شواهد على العناية بالأرض والتحضيض على زراعتها . منها ما يذكر عنه (ص) في شأن الأرض الموات ومن أحياها ، وقوله في النخلة ((وأكرموا النخلة فأنها عمتكم)) حيث شبه النخلة بالانسان لأنها اقرب النبات اليه فهي تموت اذا قطع رأسها وتكون عقيماً كما أن الانسان قد يكون عقيماً .

وورد في حديث آخر قوله (ص) : (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها)) مبالغة منه في أمر الزراعة واكراماً منه للنخلة . والفسيلة تجمع على فسائل : صغار النخل .

وورد في أحاديث بعض الصحابة ما يستدل على العناية بأمر الفلاحين ، والمشهور في ذلك قول عمر بن الخطاب (رض): ((إتقوا الله في الفلاحين)) .

وكانت الأرض وسبل اصلاحها موضع اهتمام الدولة العربية في عصورها المختلفة ولا سيما العصر العباسي، فقد حظيت الأراضي بإصلاحها وحفر القنوات والترع لإيصال الماء اليها .

وتصدر بعض العلماء للتأليف في الفلاحة والزراعة فنشأ علم عرف بـ (علم الفلاحة) له مصادره وأصوله ومصطلحاته . وعلى الرغم من قلة ما ألف في هذا الباب قياساً بما ألف في العلوم الاخرى الا أن الكتب التي وصلتنا تشهد على أهمية الموضوع ومحاولة العلماء جاهدين في وضع أسس منهجية لهذا العلم ودراسته من حيث الأسباب والمسببات وشرح جوامعه النظرية والتطبيقية وان كنا نجد من خلال شروحهم أموراً بعيدة عن التعليلات العلمية السليمة . وفيما يأتي ذكر لأهم ما ألف في هذا الباب :

1- كتاب (الفلاحة النبطية) لأبن وَحْشيّة ، وهو أبو بكر احمد بن علي بن قيس . ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب والوثائق القومية في القاهرة برقم (490) زراعة . ويعنى ابن وحشية بالفلاحة النبطية ما كان منسوباً الى النبط لشهرتهم بالزراعة . وقد أطلق العرب كلمة

(النبط) أو (النبيط) على سكان العراق قبل الفتح العربي الاسلامي ولا سيما سكان الجزيرة وأطراف من بلاد الشام .

2- (كتاب الفلاحة) لأبن بصال ، وهو أبو عبد الله بن محمد بن ابراهيم . نشر هذا الكتاب في تطوان 1955 .

3- كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) لأبن البيطار وهو أبو محمد عبد الله بن احمد المالقي . والكتاب مشهور معروف وله طبعات عديدة ويعد من كتب (الأدوية المفردة) من حيث المصطلح الطبي وهو من جملة المصادر التي اعتمدها المؤلفون في علم الفلاحة لأن الذين كتبوا في هذا العلم استمدوا بعض مصادرهم مما ألف في الأعشاب الطبية فضلاً عن المصادر اللغوية المعنية بأسماء النبات، وأوسعها كتاب (النبات) لأبي حنيفة الدينوري الذي ما يزال مخطوطاً وقد اعتمده أبن منظور في معجمه (اللسان) فيما اعتمده من المصادر .

4- كتاب (المُقْنع في الفلاحة) لأبن الحجّاج ، وهو احمد بن محمد الإشبيلي . نشر هذا الكتاب في عمان سنة 1982 .

5- كتاب (الفلاحة في الأرضين) لأبن العوّام ، وهو يحيى بن محمد بن احمد الاشبيلي . نشره كابري في مدريد سنة 1820 .

6- كتاب الفلاحة المسمى بـ (جامع فوائد الملاحة) لرضي الدين أبي الفضل محمد بن محمد الغزي . لخصه الشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة 1143 هـ في كتاب سماه (علم الملاحة في علم الفلاحة) . وطبع ببيروت سنة 1979 .

7- كتاب (مفتاح الراحة لأهل الفلاحة) لمؤلف مجهول من القرن الثامن الهجري على ما ذكره محقق الكتاب ونشر في الكويت سنة 1984 .

8- كتاب (كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب) لعبد الرزاق الجزائري . وهو من كتب الأعشاب الطبية ، نشره ليكلير في باريس سنة 1874 .

وتناولت كتب الفلاحة شؤون الزراعة المختلفة كمعرفة الأراضي وسقيها وغرس الأشجار والرياحين والأزهار وتقليم الأشجار وتحسين حملها وحفظه والتركيب والتطعيم وأنواعهما والحبوب والبزور والبقول وأراضيها وأوقات زرعها وكيفية الخزن وادخار الحبوب والبزور .

وذكرت هذه الكتب ايضاً أنواع الأرضين ومعرفة التربة الصالحة من غيرها ، ومما أشارت اليه من أنواع الأرضين : الأرض الباردة ، والحارة ، والبيضاء، والحمراء، والبُور، والتُّربة ، والجبلية ،والحامضة، والخشنة، والرطبة، والرملية ، والرمادية ، والسوداء .. الخ وبينت أصناف (الأزبال) وهو في المصطلح ما نسميه بالأسمدة ، وعددت منها : فضلات البقر ، وبعر الغنم ، وبول الجمال ، وتبن الباقلاء ، وتبن الجزر ، وتبن الحنطة ، وتبن سعف النخيل ، وتبن الشعير ، ودم الجمال ، ودم الضأن ، ورماد الحمامات ، وروث الحمير ... الخ .

وتعرضت للأمراض التي تصيب النبات ، ومنها : انتثار الرمان ، وانتثار العنب ، وتعفن عنب الكرمة ، وسيلان الكَرْمة ، وعُقْم النخل .

ولما كانت الدولة العربية تعتمد الدواوين في شؤونها الادارية والمالية والاقتصادية وغيرها أفردت ثلاثة منها للقضايا المتعلقة بالزراعة والري ، وهي : ديوان الخَراج وديوان الضِّياع (= جمع ضَيعَة) وديوان الماء . وتواضع الكتاب في الدواوين على ألفاظ ومصطلحات نجمل أهمها مبتدئين بديوان الخراج ، فمنها : الفيء = ما يؤخذ من أرض العُنْوة ، أي حرباً ، والخَراج – ما يؤخذ من أرض الصلح أي صلحاً والعشر = ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها والتي أحياها المسلمون من الأرضين والقطائع ، والاقطاع = هو أي يُقْطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له وتسمى تلك الأرضون قطائع ، واحدتها : قطيعة ، والحَزْر = تقدير الضريبة المخصوصة بغلات الزروع ، والخَرْص = هو كالحزر الا أنه مخصوص بالنخيل والكروم ، والتخمين = هو تقدير مخصوص بالخضر ، والتلجئة = أن يُلجئ الضعيف ضيعته الى قوي ليحامي عليها ، وجمعها : الملاجئ والتلاجئ .

ومن ألفاظ ديوان الضياع ألفاظ الطول والعرض (= المسافات) ، وأهمها : القبضة = سدس الذراع ، والبار = ست أذرع ، والأشْل = ستون ذراعاً . ومنها ألفاظ المساحات وأشهرها : الجريب = هو أشل في أشل ، أي ستون ذراعاً طولاً في ستين ذراعاً عرضاً ويكون مقداره (3600) ذراع . والقَفِيز = هو عشر الجريب ومقداره (360) ذراعاً ، والعشير = هو عُشْر القفيز ومقداره (36) ذراعاً .

ومنها ألفاظ الموازين والمكاييل ، كالكر المعدل = ويبلغ (60) قفيزاً ، والقفيز = (25) رطلاً بالرطل البغدادي الذي يبلغ إثنتي عشرة أوقيّة تقريباً والقنفل = ضعف الكُرْ المعدل ، والكر الهاشمي = ثلث الكر المعدل ، والمختوم = سدس القفيز المعدل .

ومن الألفاظ المستعملة في ديوان الماء : السقي = ما يسقى من الزرع بآلة أو بغير آلة ، والبخِسّي = ما لا يسقيه الا المطر ، والسَّيح = ما على ظهر الأرض من الماء يسقى من غير آلة . وعرف من آلات السقي التي تسقى بها الأرضون العالية : الدولاب ، والدالية ، والغَرّافة ، والزّرْنُوق ، والناعورة ، والمَنْجنون .

ومن ألفاظ ديوان الماء : الطراز = مقسم الماء في النهر ، وكانت مقاسم المياه في العراق تدعى (الدرقات) ، والشاذروان = أساس يوثق حوالي القناطر ، والمآصر = سلسلة أو حبل يشد معترضاً في النهر يمنع السفن عن المضي ، والكوالجة = مجرىً يقطع فوق مقسم الماء الى ارض ما ، والمفرغة = مغيض (منخفض) في نهر منصوب ترسل فيه فضول المياه عند المد ويكون بسائر الأيام مسدوداً ، والملاح = متعهد النهر أي الذي يتعهده بالاصلاح وتقسيم الماء ونحوهما ، ويسمى صاحب السفينة ملاحاً أيضاً .

ووردت في المصادر التراثية المختلفة مصطلحات عامة لها صلة بالزراعة والفلاحة ، منها : الأكّار = الفلاح ، والجرين = بيدر التمر ، والرّحاة = الدولاب الذي يوضع على النهر يصعّد به الماء ، والسماد =

سرجين (زبل الدواب) ورماد تسمد به الأرض والفلاليج = الأرض المصلحة للزرع ، مفردها فَلّوجة ، وبها سميت المدينة المعروفة الواقعة في غربي العراق ، والناطور = ناظر الكرم أي حارسها ومديرها ، واللقاط = السنبل الذي تخطئه مناجل الحصاد ، والغِراس = ما يغرس من الشجر ، والقِطاف = أوان قطف الثمر .

المسعودي : المؤرخ الجغرافي الرحالة[15]

إن العلماء على نصيب متفاوت من العناية ولا سيما القدماء منهم . وربما يعود السبب في كثير من الأحيان الى غفل المصادر عن ذكرهم أو قلة ما يرد فيها من معلومات عنهم . وربما كان السبب أيضاً ضياع تراثهم من المؤلفات ، ولكن يبقى سبب خفي لا يقره علم التاريخ من حيث المنهج وهو ما يعبر عنه (بالحظ) . وهذا ما يلاحظه كثير من الباحثين حينما يتدارسون سير الأوائل من العلماء والشعراء والأدباء. والمسعودي إن لم يكن سيء (الحظ) بين العلماء فإنه لم يحظ بالرعاية والعناية كما ينبغي ولولا ضياع موسوعته التاريخية الموسومة بـ (أخبار الزمان) لكان له شأن كشأن الطبري – مثلاً – من حيث الشهرة .

لم تذكر المصادر التي ترجمت للمسعودي سنة لميلاده ولكنها ذكرت سنة وفاته على اختلاف يسير ، والمرجح أنه توفي في سنة 346 هـ . وهو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي نسبة الى مسعود والد عبد الله بن مسعود الصحابي المعروف وكان أبو الحسن من ذريته فنسب اليه .

والمسعودي عالم فلكي جغرافي رحالة جمع علوم عصره وأخذ من كل فن ما يكفيه فضلاً عن المشاهدة والمعاينة .ويعد فقيهاً مُحّدثاً أديباً أحاط بالفلسفة وأطلع على ثقافات الأمم وألم بلغات فتحت له أبواب العلم منها

[15] جريدة العراق (4327) في 31 / آذار / 1990

الهندية واليونانية والرومية والسريانية وجمع خلاصة معارفه في مؤلفاته التي تميزت بوضوح العبارة وعمق الفهم ودقة الوصف وتعدد مناحي المعرفة حتى لقبه المستشرق فون كريمر في كتابه (الثقافة في الشرق) بـ (هيرودوت العرب) ، وقال عنه فازيليف في كتابه (العرب والروم): ((إن كتب المسعودي مما يقرأها المسلمون والأوربيون على السواء ويجدونها ممتعة طليّة)) .

وعلى الرغم من إغفال المصادر ذكر سنة ميلاده الا أنها أجمعت على أنه بغدادي المنشأ ما خلا صاحب الفهرست حيث ذكره وقال : ((هذا رجل من أهل المغرب)) (الفهرست ص 171) . ويعد هذا من أوهام ابن النديم فقد نقل ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء (جـ 13 / ص / 91) عبارة ابن النديم ورد عليه قائلاً : ((وقول محمد بن اسحاق أنه من أهل المغرب غلط لأن المسعودي ذكر في السفر الثاني من كتابه المعروف بمروج الذهب وقد عدد فضائل الأقاليم ووصف هواءها واعتدالها ثم قال : وأوسط الأقاليم بابل الذي مولدنا به .. الخ)) .. واقليم بابل في التقسيم الجغرافي الذي بينه المسعودي من أفضل الأقاليم في رأيه ، وأفضل بلد في بغداد فهو اذن بغدادي المولد عراقي المنشأ ولذلك عده أبن شاكر الكتبي (فوات الوفيات 13/3) ((في البغداديين)) ووصفه بكونه ((اخبارياً علامة صاحب غرائب وملح ونوادر)) .

رحل المسعودي الى بلدان كثيرة في المشرق فطاف فارس وكرمان في سنة 309هـ واستقر حين من الزمن في اصطخر وفي سنة 310 هـ قصد

الهند ثم رحل الى سرنديب (= سيلان) وركب البحر من سرنديب الى بلاد الصين وطاف البحر الى مدغشقر ثم عاد الى عُمان وقصد في سنة 314 هـ أذربيجان وجرجان واجتازهما الى ما يليهما من بلدان ثم عاد ورحل الى الشام وفلسطين وزار إنطاكية في سنة 332 هـ وثغور الشام ودمشق واستقر في مصر فنزل الفُسطاط سنة 345 هـ وتوفي فيها سنة 346 هـ .

وأشار الى معظم أسفاره هذه فيما تركه من مؤلفات ولا سيما كتابه مروج الذهب فقد ذكر في المقدمة (جـ 1 ص 10) بعض البلدان التي طوف فيها كالسند وبلاد الزنج والصين وخراسان وأرمينية وأذربيجان والشام .. الخ .

وللمسعودي مؤلفات كثيرة في علوم مختلفة ومعظمها في موضوعات التاريخ والأخبار ووصف البلدان والعقائد والأديان والفقه والأصول . وذكر أبن النديم من كتبه (الفهرست ص 71) : مروج الذهب وذخائر العلوم والاستذكار وكتاب التاريخ في أخبار الأمم وكتاب رسائل . وذكر له ياقوت (معجم الأدباء 13 / 93 ، 94) أحد عشر كتاباً . وأشار المسعودي نفسه الى معظم مؤلفاته في كتابيه (مروج الذهب) و (التنبيه والاشراف)، وبلغ ما ذكره في كتاب المروج ثمانية عشر كتاباً وأكثر فيه من الاشارة الى كتابيه (أخبار الزمان) و (الكتاب الأوسط) . وبلغ ما ذكره في التنبيه والاشراف واحداً وعشرين كتاباً ... وضاعت معظم هذه الكتب ولم يصلنا منها شيء سوى ثلاثة هي : مروج الذهب ، والتنبيه والاشراف ، وجزء من أخبار الزمان :

1- أخبار الزمان : يعد من مفاخر المسعودي ، وهو موسوعة تاريخية تتضمن الكثير من الأخبار والأسفار ووصف الأقاليم والبلدان وعقائد الأمم وأطوارها وعاداتها وتقاليدها . الفه قبل كتابيه (الأوسط) و (مروج الذهب) ، ويستفاد من بعض المصادر أنه يقع في ثلاثين مجلداً ، ومنه نسخ مخطوطة في بعض الخزانات ، فيوجد أول هذا الكتاب في برلين . وفي فيينا الجزء الأول منه ، وله في القاهرة مصورة عن مخطوط بباريس . وذكر أحد المستشرقين أن في استانبول نسخة يبدو أنها كاملة تقع في عشرين جزءاً (بروكلمان – الترجمة العربية 57/3) . وتروى بصدد هذا الكتاب قصة محزنة مفادها أن أحد المستشرقين عثر على نسخة منه في بلدة (شنقيط) بصحراء أفريقية ولم يمكنه أهل المدينة من الحصول عليها فاحتال لذلك بشتى الحيل فكان مصيره القتل .

وطبع في بيروت كتاب يقع في جزء واحد موسوم بـ (أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران) ونسب الكتاب الى المسعودي، وكتب مقدمته عبد الله الصاوي وهو يشكك في هذه النسبة ويرى أن الكتاب اختصار لجانب يسير من كتاب (أخبار الزمان)، ووجدت التسمية المذكورة آنفاً على النسخة المحفوظة بمكتبة تيمور باشا .

والراجح أن الكتاب المطبوع في بيروت اختصار لجزء من كتاب أخبار الزمان، فقد تضمن موضوعات في التاريخ والجغرافية والبلدان والعادات والتقاليد والعقائد والأديان وأخبار الملوك والأمم والطوائف

ثم خلص بعد ذلك مؤلفه أو الذي اختصره الى مولد الرسول (ص) وبعثته وهجرته ومغازيه ووفاته وأخبار الخلفاء حتى خلافة المتقي وهي سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة .

2- كتاب الأوسط : هو كتاب مختصر من كتاب أخبار الزمان جعله وسطاً بينه وبين مروج الذهب . ومنه نسخة في أيا صوفيا في تركيا وهي نسخة منقولة من مخطوط كتب سنة 332 هـ ، وربما وجد أيضاً في نسخة بودليانا (بروكلمان – الترجمة العربية 57/3) . وفي مكتبة أكسفورد نسخة يظن أنها كتاب الأوسط ، كما يظن بعض الباحثين أنه وقف على أجزاء منه في بعض خزانات دمشق .

3- مروج الذهب ومعادن الجوهر : هو من أكثر كتب المسعودي شهرة ورواجاً . ومنه نسخ كثيرة في مكتبات أوربا وروسيا وتركيا وتونس والقاهرة والهند وله طبعات كثيرة من أقدمها طبعة بولاق بمصر سنة 1283 هـ، وطبع في القاهرة أيضاً سنة 1303 هـ وسنة 1347 هـ، وطبع على هامش الكامل في التاريخ لإبن كثير في بولاق سنة 1303 هـ، وعلى هامش نفح الطيب للمقري سنة 1302 هـ وسنة 1346 هـ . واختصره بعض العلماء كالأبشيهي ومحمد بن علي الشاطبي (بروكلمان الترجمة العربية 58/3) . وعني الأوربيون بهذا الكتاب عناية فائقة حيث نشر مع ترجمة فرنسية في تسعة أجزاء بباريس بين سنة 1861 م وسنة 1877 م، ونقله المستشرق (شبرنغر) الى الأنكليزية وطبع الجزء الأول من ترجمته في لندن سنة 1841 م .

وذكر المسعودي في مقدمة كتابه هذا أنه شرع في تأليفه سنة 332 هـ في خلافة المتقي . وذكر ما أدركه من أخبار المطيع الذي توفى في سنة 363 هـ بعد وفاة المسعودي بسبع عشرة سنة وأشار المسعودي الى أنه شرع في تأليف كتابه الأوسط بعد كتابه أخبار الزمان . ثم اختصر الكتابين في كتاب مروج الذهب ، فالكتاب إذن في التاريخ وأخبار العالم والأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها وفيه كثير من المسائل الفلكية والجغرافية ووصف الأقاليم والبلدان والبحار والخلجان والأنهار واخبار الأمم كالصين والترك والكلدان وملوك بابل ومصر ، وفيه ذكر الأمم وطبقاتها كالسودان والصقالبة والافرنجة والجلالقة وأخبار العرب في الجاهلية والاسلام وتواريخها وأيامها وظهور الاسلام وأخبار النبي (ص) والصحابة والخلفاء والملوك حتى سنة 336 هـ . وتضمن الكتاب كثيراً من المسائل والقضايا العلمية والاجتماعية كالعادات والتقاليد والمعتقدات والمذاهب والملل والنحل .. الخ . ويعد من أكثر كتب المسعودي تهذيباً وترتيباً وتبويباً، وفيه عناية واضحة بالمنهج إذ ذكر في مقدمته ثبتاً بالمصادر التي اعتمدها من كتب الاخباريين والمؤرخين الجغرافيين واللغويين والأدباء بلغت خمسة وثمانين كتاباً أثنى على بعضهم ولا سيما الطبري وإبن خرداذبة والبلاذري وأبن قتيبة والصولي وقدامة بن جعفر ووصف كتاب أبن جرير الطبري في التاريخ بأنه ((الزاهي على المؤلفات والزائد على الكتب المصنفات)) .

ومن المسائل الطريفة التي قلما نجدها في كتب التراث أن المسعودي حذر في مقدمة كتابه هذا وفي آخره من أراد سوءاً بالكتاب ، تحريفاً أو طمساً أو تبديلاً أو اختصاراً أو بادعاء ما فيه الى نفسه .

4- التنبيه والإشراف : هو من كتبه المختصرة ألفه بعد كتابه الموسوم بـ (الاستذكار) قال في المقدمة ((... رأينا أن نتبع ذلك بكتاب سابع مختصر نترجمه بكتاب التنبيه والاشراف وهو التالي لكتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار)) ويتضمن الكتاب موضوعات شتى كالفلك وعلم النجوم والجغرافية والأخبار ووصف الأقاليم والبحار وذكر الأمم السالفة وأخبار النبي (ص) والخلفاء والملوك حتى سنة 345 هـ ، وطبع في ليدن سنة 1894 م وله طبعات أخرى في القاهرة .

الخلاف حول المعربات في القرآن الكريم واللغة العربية[16]

تساؤلات كثيرة تحوم حول مسألة المعربات ووجودها في القرآن الكريم ، وصراع كلامي طويل ومرير لم يأت بنتيجة واقعية وموضوعية رغم وجود نتاجات وبحوث مثمرة نمقتها أنامل نذرت نفسها لخدمة القرآن الكريم واللغة التي نزل بها ولكن للأسف لم يحاول البعض منا أن يفتح صفحة من عشرات بل المئات من الكتب التي ألفت في هذا المضمار، ليحسم النزاع الدائر في نفسه ومع غيره، ذلك النزاع الذي كانت تدور رحاه بين علماء اللغة وعلماء القرآن والنحاة وغيرهم ، ثم انهم توصلوا الى نتائج وقفوا عندها .

ونزاع اليوم هو امتداد للأمس ولكنه نزاع يخلو من رصانة الفكر والاحاطة التامة وباختصار انه نزاع جهلة ، لا يقدرون على شيء الا بأتباع الظن أو الأخذ بظاهر القول وهذا هو الجهل والتعصب بعينه ، ولكي يحيط القارئ اللبيب بشيء يسير من هذا الموضوع ، زرنا مكتب الاستاذ الدكتور علي زوين، استاذ فقه اللغة والدراسات الشرقية في جامعة بغداد وأجرينا معه هذا الحوار السريع وطرحنا عليه بعض تلك التساؤلات .

هل باعتقادكم أن القرآن الكريم واللغة العربية وكما يرى البعض يخلوان من ألفاظ معربة ؟

---

[16] مجلة الكوثر (39) في 12 / أيلول / 2001 م .

- انقسم اللغويون المتقدمون في هذه المسألة على فريقين باختلاف مذاهبهم في الفروع ، وعقائدهم في الأصول : - الفريق الأول : قال بوجود ألفاظ من أصول غيرعربية في القرآن الكريم ، وهم الأغلبية ، والفريق الآخر ، أنكر ذلك .

وما هي المصادر التي تعزز هذا الرأي ؟

- نجد في كتاب المزهر للسيوطي آراء هؤلاء ، وقد ذكر السيوطي ما يزيد على مائة كلمة من أصول غير عربية وألف القدماء كتباً في المعربات أشهرها المُعرَّب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي ونجد الاشارات كثيرة في كتب اللغة والمعجمات العربية من (معجم العين) للخليل بن احمد الفراهيدي الى (تاج العروس) للزبيدي .

وهل هناك من أنكر ذلك ؟

- ممن أنكر هذه المسألة فريق من اللغويين وبعض الأصوليين الذين تحجرت أفكارهم، وتوهموا سبيلهم في ظاهر الألفاظ الواقعية فمن اللغويين هناك إبن فارس، ومن المتكلمين من ذهب مذهب أبي حزم الأندلسي الظاهري، ومتابعيه الذين أنكروا السببية الطبيعية بين الأشياء، وأساليب العرب في الاستعارة والمجاز ، والكناية وبالغوا في الأخذ بظاهر اللفظ الى المستوى السطحي الساذج حتى أفردوا مقولات بعضها يثير الضحك .

وكيف ذلك ؟

- رأي كرأي أبن مضاء النحوي الأندلسي في الغاء العلل الأُوَل والثواني في العوامل النحوية لا لسبب سوى أنها خلاف العقيدة كما يدعي ! وأن العلة الحقيقية في رفع الفاعل ونصب المفعول هو الله تعالى .. !!!

اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم هي كغيرها من اللغات تعرضت لعملية التأثير والتأثر هل يعد هذا الأمر خللاً في اصل اللغة ؟

- ان العربية ليست بدعاً من اللغات فهي كاللغات الاخرى تكون عرضة للتأثر والتأثير ، وقد أخذت العربية منذ قديم الزمان ألفاظاً من لغات أجنبية ولا سيما الفارسية واليونانية سواء أكانت عن طريق مباشر أم عن طريق الآرامية ، والرأي الراجح في مسألة المعرب ، والدخيل ، الاقرار بوجود هذه الظاهرة وأنها ليست قدحاً في العربية أو نقصاً فيها بل على نقيض ذلك أي أنها دليل على أن العربية كانت مهيأة منذ زمن بعيد ، في العصر الجاهلي قبل الاسلام لتكون لغة الحضارة والعلم والثقافة وهذا ما حدث بعد ظهور الاسلام ونزول القرآن الكريم .

نفهم مما تفضلتم به أن العربية استوعبت ألفاظاً دخيلة من غير هويتها ؟

- نعم فاستيعاب اللغة ألفاظاً أجنبية دليل على رقيها الحضاري ، ولعل العربية من أهم اللغات التي تأثرت بالألفاظ الدخيلة وأثرت في بنائها الصوتي والصرفي وصقلتها ، فالتشذيب الصوتي والصرفي والتغير الدلالي في معاني الألفاظ المعربة جعلها وكأنها عربية الأرومة لأن العربية استبعدت أصواتاً ليست فيها مثل (P) و (G) وحورتها الى أصوات قريبة من حيث المخرج من تلك الأصوات الدخيلة وجعلت

على سبيل المثال (V) الفارسية واواً تارة وباء تارة أخرى (G) كافاً أو جيماً بحسب ما يعرف بقانون الأصوات الحنكية . وحينما نقرأ في المتون والنصوص العربية وأهمها القرآن الكريم نجد ألفاظاً من قبيل (الفردوس – والسندس – والاستبرق والإبريق والمِشْكاة) وغيرها مستعملة وهي من أصول غير عربية بلا شك كما ثبت في الدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة .

لا شك أن غير الملم بمسألة المعرب والدخيل يتصور أن ما ذكرتموه الآن من ألفاظ هي غير عربية نتيجة التحامها وذوبانها فيها وكثرة استعمالها .

- بالتأكيد هذه الألفاظ نظائرها لغير المطلع تبدو عربية لأنها أخذت قواماً صوتياً وصرفياً من العربية وهذا دليل على القابلية الحضارية المتجددة دوماً لهذه اللغة التي شرفها القرآن الكريم بالنزول بها .

الشيخ الوائلي ومدرسة المنبر الحسيني[17]

تغمد الله تعالى بأوسع رحمته شيخ قراء المنبر الحسيني، فقد أوفى بالذمة وأعان على الحرمة واستعان بالكلمة وخدم سيد الشهداء وآله وأصحابه بما لا يسع لأحد أن يعمله ، وأرضى بذلك ربه ونبيه وآل بيت العصمة ولا سيما الزهراء البتول وعقيلة بني هاشم لسان صدق الظليمة وزين العابدين الناطق بالحق في مجلس الطاغية .

وللشيخ عمر طويل أفناه على المنبر الحسيني واعظاً مذكراً أصولياً فقيهاً متكلماً مؤرخاً عالماً بدقائق السيرة النبوية الهاشمية والعلوية المرتضوية والحسينية الفاطمية. لم يترك لطيفة الا ذكرها رابطاً إياها بما بعدها بألطف منها مستحسناً الخروج الى القصد والغرض من غير تكلف ولا تحمل ، وهو بذلك كأبي ذر (رض) أصدق لهجة وأبلغ كلمة وأوضح قصداً وأخلص نية ، يسمعه السامع ويرتاب في نفسه ولا يرتاب فيه ، يصغي السمع لفصوص الحكم ومدارك الفهم ليكمل ايمانه ويرتق فتق النفس الأمّارة بالسوء ، فالكلمة منه أمواج من المعرفة المتواصلة تترى لتصل القلوب قبل العقول فيكون القلب فيها مفتاح العقل فينفتح ما أغلقه الشيطان وما طبعه على القلوب والسمع والأبصار من أكنّة ، ويكون مدار الصدق في ذلك كله الفهم والإفهام والقصد والبيان ، فمن وجد في قلبه نوراً تلألأ وابتهج ، ومن في

---

[17] جريدة الحوزة : 23 جمادي الآخرة 1424 هـ / 21 آب 2003 م . نشر المقال بمناسبة وفاة الشيخ رحمه الله

قلبه علقة الضلالة والجهل نكص على عقبيه وأصم اذنيه وصار كالأنعام بل أضل سبيلاً ان من مزايا الشهادة الحسينية ديمومة الرسالة المحمدية الأصيلة فضلاً عن كونها رمزاً الى الأهداف الانسانية النبيلة ونصراً للحق على الباطل . وقد تجلت هذه المعارف على لسان الخطباء منذ أول مجلس حسيني في حضرة ثامن الأئمة علي بن موسى الرضا (ع) وتناقلتها الأجيال لاحقاً عن سابق وتأسست على هذا المنبر الشريف جملة من التقاليد الوعظية كالمقدمة وهي المدخل الى ما يريد الخطيب تبليغه للحاضرين من المسائل الدينية أو التاريخية أو الأخلاقية ، ثم طرح المسائل تلك ثم ربطها على نحو ما بواقعة كربلاء ثم الخاتمة بقراءة التعزية بالنغمة الحزينة واختيار الأشعار المؤثرة والمراثي المشتهرة . ويتفاوت الخطباء جودة من حيث البلاغة والبيان والفهم والافهام وتوضيح المقاصد وادراك الأغراض على أحسن وجه وأتمه وأنفعه ومن ثم اختيار الأقوال والأشعار من باب حسن المناسبة وترابط المقدمات بالمداخل والتعزيات بالخواتم وما يجللها من صوت حزين ونبرة مؤثرة . وسار خطباء المنبر الحسيني على هذا المنهاج جيلاً بعد جيل لم يجدد أحد فيه شيئاً يذكر الا النزر اليسير ، وكان بين الحين والآخر يظهر من له مزية المقال ، غير أن السمة الغالبة بقيت كما هي لا تغيير فيها ولا تبديل الى أن ظهر الشيخ الوائلي فحصل التغيير الشامل في هذا المنبر الشريف قلباً وقالباً وشكلاً ومضموناً فتأسست بذلك مدرسة جديدة مستجدة أخرجت القضية الحسينية من نطاقها الشيعي العلوي الى نطاق اسلامي وتوسعت حتى بلغت السمة العالمية الانسانية ، وذلك كله بفضل هذا الشيخ الذي حباه الله بالعلم وجبله على محبة أهل البيت وأتمم

عليه بفصاحة اللسان وبلاغة البيان والنبرة الصوتية المؤثرة في القلوب والعقول معاً ، فكان بحق رائد التجديد في المنبر الحسيني الشريف وقائد مدرسة جديدة فيه ستظل ماثلة الى ما شاء الله تعالى . و أما عناصر هذه المدرسة وركائز هذه الاطروحة فنجملها فيما يأتي :

1- اتخاذ عبارة معينة مدخلاً في الموضوع ، وغالباً ما تكون هذه العبارة دينية أو أخلاقية أو علمية ، فتؤلف حصيلة العبارات مع مجموع المجالس (دائرة معارف) يمكن وصفها بـ (دائرة المعارف الحسينية) .
2- التلطف في ربط (العبارة) بـ (الموضوع) ، وهو ما يمكن تسميته بـ (حسن التخلص) .
3- كثرة الاستشهاد مع كثرة الدلالات في الموضوع من حيث (حسن التعليل) وجمع الروافد في سير واحد يفضي الى المقصد من الموضوع والغرض من المقدمة والمدخل .
4- (الموسوعية) في طرح المسائل المختلفة وتوارد المعارف الدينية والتاريخية والاخلاقية والعلوم الصرفة وامتزاجها في خدمة المقدمات والمداخل والموضوعات .
5- رد الشبهات بالاستدلال العقلي المنطقي والدلائل النقلية من مظان الخصوم توكيداً للحق وتعريفاً بالمستحق .
6- التلطف في الرد على الخصوم بالحكمة والموعظة الحسنة وبيان الحجج العقلية والنقلية في اثبات القضايا أو نفيها بما لا يدع للعاقل شبهة الا نفاها ولا لجأ الا دفعه .
7- حسن التخلص من الموضوع الى الخاتمة .

وتفصيل ما تقدم ذكره وغيره من الموارد والنكت حقيق أن يتصدر له الباحثون ولا سيما الشباب منهم ، ففي هذه المدرسة الجديدة فيض من المعاني والمعارف والأصول والفروع لا يسعه كتاب فضلاً عن بحث مختصر .

وأسأل الله بوجهه الكريم ورحمته التي وسعت السموات والأرضين ومنّه وكرمه أن يمن على الشيخ الجليل بالرحمة والمغفرة والرضوان وان يجعلنا جميعاً من خدمة آل بيت النبوة الأطهار ، إنه سميع مجيب فعّال لما يريد .

كلمة في (العرفان)[18]

العرفان طريق أهل السَّيْر والسلوك الى واجب الوجود تعالى المتوحد بذاته المفيض بأنواره على الوجود كله ، كما أن العقل طريق أهل الكلام الى واجب الوجود تقدست ذاته عن المشابهة والمناظرة والحلول والتعدد والتكثر وهما سبيلان الى إدراك الوجود الأزلي الأبدي ، أحدهما يستميل العقل الانساني وهو جوهرة الخالق لخلقه ، والآخر يفيض من القلب الباطني المعنوي ، فالسبيلان إن اختلفا من حيث الصدور فانهما متفقان من حيث الورود ، واكتمالهما بكمالهما ، ولا يصل الى تلك المرتبة الا الأوحدي الذي أفاض الله على قلبه بملكة الكشف النوراني وعلى عقله بملكة الكشف اليقيني .

ولأرباب التصوف والعرفان طرائق قبلية ومنازل في سيرهم وسلوكهم الى المحبوب تبدأ بالخلوص والاخلاص وتنتهي الى التجرد من الذات والفناء في المحبوب من غير حلول . ويرتقون في كل منزلة صفة من الصفات العرفانية ، فبعد تجردهم من عالم الكثرات يلجون عالم البرزخ ويشاهدون بين الحين والآخر قدحات نورانية على سبيل التوهم والمجاز ثم ينتقلون الى عالم الملكوت فيبلغ التجرد منتهاه ويحصل لهم الكشف الحقيقي بالتحول من (الحال) الى (المقام) ويرون ما كانوا يرونه في عالم البرزخ حقيقة لا توهماً ومجازاً ، ثم تكون المشاهدة للموجودات على ما اصطلحوا عليه بـ

---

[18] جريدة الحوزة – التاريخ 4 رمضان 1424 هـ - 30 تشرين الأول 2003 م .

(الأسماء والصفات) إذ إن الحقائق الوجودية حقائق على سبيل المجاز ولا حقيقة الا الله تعالى فهو الحق المطلق الذي أفاض على الخلق بحقيقة المعاينة البصرية المجازية ولب الحقيقة إنما هو الفيض الألهي القدسي ويرون الله رؤية القلب في كل موجود ولا ينفصل الموجود في وجوده عن الخالق فيرون الموجودات كلها في الله تعالى . وهذه المشاهدة المعبر عنها في اصطلاحهم بـ (وحدة الشهود) غير ما اتهموا به من قولهم بوحدة الوجود الفلسفية ، فالوحدة عند السالكين العارفين تفيض من الواحد الأحد لا تعدد ولا تكثر للذات المقدسة ولا حلول فيها ولا هي تحل في غيرها كالشمس نورها لا يقبل التجزؤ والتفرق واذا ما وقع نورها على أعيان الموجودات تفرق من حيث تفرق هذه الأعيان لا من حيث النور نفسه ...

وبعد فان الحديث عن المنازل والمشاهدات ومجمل ما يراه أرباب التصوف حديث لا يفي به كتاب فضلاً عن هذه العجالة ، ولعمري أنهم رأوا ببصرهم وبصيرتهم ما جعل الدنيا وهي عالم الكثرات في اصطلاحهم أقل شأناً من (نفطة عنز) كما قال أمير المؤمنين ومولى المتقين وقدوة العارفين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته المعروفة بالشقشقية : ((... أما والذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسَمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر ما أخذ الله على العلماء أن لا يفارقوا على كِظّة ظالم ولا سَغَب مظلوم لألفيتُ حَبْلَها على غاربها و لسَقَيْتُ آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من نفطة عنز)) أي من عطسة عنز ، وهي الأليق بكلامه عليه السلام من عبارة (عفطة عنز) كما ذكر ذلك شارح النهج الإمام محمد عبده رحمه الله .

كتاب إنباط المياه الخفية للحاسب الكرخي[19]

في تراثنا العلمي كتب ورسائل وشروح وتعليقات واستدراكات ومختصرات غاب بعضها عن أعين ذوي الخبرة من الخواص فضلاً عن العوام ، وذهب جلها في غياهب النسيان وابتدرتها يد الفقدان فأنكفأ عنها التاريخ وانطوت في مدارج الجهل وطوتها معالم الطمس والزوال .

ومن طرائف العلوم العملية في تراثنا (علم الرِّيافة) أو استنباط المياه الخفية من مظانها في باطن الأرض . وهو علم يجمع بين فنون شتى كالهندسة وعلم الأرض والحساب والفراسة ، ويحتاج اليه الانسان في شؤونه الضرورية ، فبالغذاء والشراب قوام الحياة ، ويحتاج اليه أيضاً في عمرانه وفلاحته وزراعته .

والتعريف بهذا العلم كما ورد في كتب التعريفات ((هو معرفة الماء من الأرض بواسطة الامارات (= العلامات) الدالة على وجود الماء ويعرف بها أنه قريب أم بعيد .. وأصل هذه الصناعة معرفة خواص الأرضين وأحوال تربتها بألوانها وخواصها السهلي والجبلي والرملي والصخري ... وهذا العلم من حيث معرفة وجود الماء من فروع علم الفراسة ، ومن حيث حفرها واخراجها الى وجه الأرض من فروع الهندسة)) (مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده : 1/ 328 ، 329 ، حيدر آباد 1977) .

---

[19] مجلة المدى (14) آذار 2004 م

وعلم انباط المياه الخفية أقرب الى الصنعة الجامعة بين المعرفة العلمية والخبرة العملية ولذلك عني به من عني بالعمران والفلاحة والزراعة . وأفاد منه البناؤون والنقابون والفلاحون على قدر متفاوت من المعرفة والخبرة ، وذكر في فصول من كتب الفلاحة على قلتها في التراث وقلما أفرد له فصل مخصوص به . ومن الكتب النادرة التي انفردت بعنوانه كتاب الحاسب الكرخي . وهو فخر الدين أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب المعروف بالكرخي نسبة الى كرخ بغداد ، و (الحاسب) تطلق على من له المعرفة بعلم الحساب والعدد والرياضيات . عاش في بغداد وتوفي سنة (410 هـ) أو في سنة (420 هـ) على ما ذكره بعض المؤرخين (أنظر : تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون لعمر فروخ : 323) ، وله من المؤلفات فضلاً عن كتابه (إنباط المياه الخفية) : (الكافي في الحساب ، الفخري في الجبر والمقابلة ، البديع في الجبر والمقابلة ايضاً) .

والظاهر من كلامه أنه الف كتبه في العراق لما وجد من حب أهل العراق للعلم وتعظيم العلماء ، قال في مقدمة كتابه (إنباط المياه الخفية ص 2) : ((.. لما دخلت العراق ورأيت أهلها من الصغار والكبار يحبون العلم ويعظمون قدره ويكرمون أهله صنفت في كل مدة تصنيفاً في الحساب والهندسة)) .

وكان من ذوي الهمة في الرياضيات ومن علمائها المتمكنين ، وقد أشار الى أهمية الجبر والمقابلة في المسائل الحسابية بقوله في مقدمة كتابه الفخري : ((أني وجدت علم الحساب موضوعاً لاخراج المجهولات من

المعلومات في جميع أنواعه وألفيت اوضح الأبواب اليه صناعة الجبر والمقابلة لقوتها واطرادها في جميع المسائل الحسابية على اختلافها)) .

ومن غريب اخباره وطريفها أنه لم يثبت الأعداد الهندية في كتبه ، وهي الأعداد التي ما تزال مستعملة الى يوم الناس هذا بل أثبت الأعداد مكتوبة بالأحرف . أما كتابه (إنباط المياه الخفية) فقد طبع أول طبعة له في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن (الهند) سنة 1359 هـ ويقع المطبوع في نحو (65) صفحة . ألفه للوزير أبي غانم معروف بن محمد بن معروف القصري والذي وزر لإبن قابوس بن وشمكير من سلاطين المشرق الاسلامي (خدمة له وتقرباً اليه) . وقال في مقدمة كتابه مشيراً الى كتب المتقدمين في هذا العلم أنه وجدها ((قاصرة عن الكفاية واقفة دون الغاية)) .

والانباط والاستنباط في اللغة : الاخراج والاستخراج ، وانباط المياه بمعنى بلوغها واستخراجها من باطن الأرض ، يقال : ((نبط الماء ينبط ... نبوطاً : نبع . وأنبط الحَفَّار : بلغ الماء ... والاستنباط : الاستخراج ... والنَّبيط : الماء الذي ينبط من قَعْر البِئر إذا حفرت)) . (الصحاح للجوهري : مادة نبط) .

واشتمل الكتاب على موضوعات مختلفة في هذا العلم وبدأه المؤلف بالكلام على عمارة الأرض وحياة أهلها ، وذكر صفة الأرض ، وكون الماء يطلب شكله الكريّ ، وسبب اختلاف الأزمنة ، وكون الهواء يستحيل ماءً ، والكلام على الأرض ذات عروق وانتقال العمارات من أرض الى أرض ،

والكلام على المياه الخفية ، وسكون الماء في جوف الأرض ، وأخذ الشمس من الماء أعذبه ، واستخراج الماء العذب من البحر .

ومن ثم انتقل المؤلف الى باب آخر في وصف الجبال والأحجار الدالة على الماء ، ومن أهم موضوعاته : الجبال التي تحفظ الثلوج ، ووصف الأرضين التي فيها ماء ، والصوت في شعاب الجبال دليل الماء ، والنبات الدال على الماء ، وصفة الجبال اليابسة والأرضين القليلة الماء وأنواع المياه واختلاف طعمها .

ومن فصول الكتاب أوصاف المياه ومعرفتها بأوصافها ، فتكلم على المياه الثقيلة والخفيفة والرقيقة والثخينة والعذبة والكريهة ، ثم ذكر كيفية تصفية الماء واصلاح المياه الفاسدة وازالة الملوثة منها .

ومن الموضوعات التي عالجها المؤلف في كتابه : معرفة الأرض ذات ماء ، وانتقال العيون عند الزلازل ، وكيفية اصعاد الماء في البئر بالأنابيب ، وذكر القنيّ وأعمال القنّائين ولباسهم عند الحَفْر ، وإجراء الماء في البَرانج (= مجاري الماء المتخذة من الخزف ونحوه) ، وصنعة البرانج وصفة أشكالها ونصبها .

ومن فصول الكتاب المهمة : ذكر الموازين التي توزن بها الأرضون ويعني بها الموازين التي تتخذ لمعرفة المياه واستنباطها من باطن الأرض ، وهي على نحو آلات ذات أبعاد هندسية وحسابية معينة تستعمل فيها حبال وعتلات دلّ على أوصافها بالشرح والرسم ، وذكر من هذه الموازين :

الأُنبوبة المتخذة من الزجاج والصحيفة المتخذة من الصفر ، وذكر موازين أخرى لم يسبق إليها .

وختم المؤلف كتابه بموضوعات تتعلق بإنشاء القنوات والمجاري والنقوب تحت الأرض وحفر الآبار وحفظ القنوات من الخراب وإنشاء القنوات في مجاري السيول وكسح القنوات وتنظيفها ... الخ .

مسائل دلالية في كتاب (الخاطِريّات) لإبن جني[20]

لأبي الفتح عثمان بن جني كتاب لم يقيد بالشهرة كسائر كتبه الأخرى أمثال الخصائص وسر الصناعة والمحتسب . وكتابه هذا لمحات وتلميحات في مسائل لغوية وأدبية متفرقة تجد فيها القضايا الصوتية والنحوية والصرفية وطرفاً من شروح على أبيات وتعليقات وعبارات وخواطر من هنا وهناك تجمع الأشتات من روايات لشيخه أبي علي الفارسي وغيره من شيوخ العربية في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

طبع هذا الكتاب المعنون بـ (الخاطِريّات) محققاً في بيروت عام 1988 وحققه وعلق عليه علي ذو الفقار شاكر .

ويُعنينا من مسائل الكتاب بعض التنبيهات على قضايا تفيد البحث الدلالي وتستوقف الباحث المعني بعلم الدلالة الحديث على جملة من أصول هذه المعرفة في تراثنا اللغوي القديم .

وسأجتزئ بما يأتي :

1- المعنى الاجتماعي أساس النظرية اللغوية فيما يسمى بعلم اللغة الاجتماعي ومن هذا القبيل أسماء الأعلام التي تطلق على الناس . وهذه الأعلام تتخذ منحىً يرتبط بالبيئة الحضارية والعقائد الدينية

---

(20) مجلة الارتقاء (4) تشرين الأول 2005 م .

والعادات والتقاليد . وتنحو الأعلام في البيئة العربية سَمْت الصفات وتطلق على مسمياتها لأسباب منها دفع (العَيْن) ورأب غيلة الحسد فيتخذ الناس أسماء هوامَّ ودوابَّ وحشرات ، وذهب إبن جني الى رأيين مختلفين في هذه المسألة ، أحدهما أن الاسم سمة لتعريف الشيء وتخصيصه ، والآخر تابع فيه سيبويه وجمهرة اللغويين القائلين بأن الاسم تضمن وصفاً مراداً من التسمية . قال (... نقيض قولهم إنّما سُمِّيت هانئاً لتهنأ . ومن ذلك الباب ، تسميتهم بنحو كُليب وقُراد وزَمْعة وضَبَّ وحِسْل ويربوع ، فلو كان في العلم عندهم طرف من الوصفية كما يقول سيبويه وغيره .. لتجنبوا التسمية بنحو هذه الرذائل ... لا بل تسميتهم بها على أن الغرض في العلمية انما السمة لتعريف الشيء وتخصيصه من بين سائر أمته. (الخاطريات : ص 30) .

ثم قال بعد ذلك (وقد يمكن سيبويه ومن يحتج أن يقول : هذا لا يرفع عن الأعلام قدر ما فيها من معنى الأوصاف لأنه يمكن أن يكون القوم إنما سموا أولادهم بأسماء الأحناش (الحيات) وغيرها من نحوها دفعاً للعين عنهم وتخاشعاً وتواضعاً) (الخاطِريّات : ص 31) .

2- في اللغة ألفاظ لها دلالات مخصوصة يتحرج الناس من استعمالها لأسباب نفسية واجتماعية ودينية فيعدل عنها الى ألفاظ أخر تمس معانيها لطفاً كالتعبير عن النكاح باللمس وعن الصحراء بالمفازة وهي مَهْلَكة من يرتادها وعن الأعمى بالبصير تأدباً وتمنياً له بالشفاء . ويصطلح على هذا الباب في علم اللغة الحديث بـ

(اللامساس) أو (حظر الاستعمال اللغوي) ، ويمكن أن يطلق عليه (التلطف في التعبير) ، وهو باب له دخل بالكناية والتعريض من أبواب البلاغة العربية . أما إبن جني فقد سماه بـ (تلامح الأشياء بالمعاني) وهي تسمية دقيقة وثيقة الصلة بفحوى مدلول المصطلح ، ((وتمثل له بما يروى عن قول النبي (ص) لقوم أتوه فقال عليه السلام : من أنتم ؟ فقالوا : نحن بنو غيّان ، فقال : بل أنتم بنو رَشْدان)) (الخاطِريّات : ص 77) تلطفاً معهم وتأليفاً لقلوبهم واستمالتهم الى الاسلام . وقد عدل الرسول الكريم عن كلمة (غيّان) التي يفهم من ظاهرها أنها مشتقة من (الغَيّ) بمعنى الضلال الى كلمة (رشدان) التي يستفاد من ظاهر اشتقاقها أنها من الرشاد أي الهداية .

3- (السياق) من عناصر دلالة الألفاظ في التراكيب ، فالكلمات لها معنيان : معنى معجمي تجده في المعجمات المختلفة يتصف بالتعدد ، ومعنى سياقي يتحدد بالسياق الذي ترد فيه الكلمة، فالسياق هو الذي يحدد معنى واحداً من معاني الكلمات أو يرجحه لذلك يعد من أهم العوامل في بيان معاني الألفاظ . وينقسم السياق على قسمين: أحدهما يعرف بـ (السياق اللغوي) وهو ما أشرنا اليه آنفاً ، والآخر يدعى بـ (سياق الحال) ويقصد به الجمع بين العناصر اللغوية والعناصر غير اللغوية لبيان المعنى وفهمه وادراكه . والعناصر اللغوية هي الأصوات والصرف والنحو والدلالة ، أما العناصر غير اللغوية فهي التي ترتبط بالمتكلم والمتلقي من حيث الأسباب النفسية

أو الاجتماعية أو السياسية أو غيرها من أسباب متعددة متفاوتة لها صلة بتوجيه المعنى وتحديده بيد أنها خارجة عن نطاق العناصر المكونة للحدث اللغوي . ومن قبيل هذا المعنى قال أبن جني في قوله تعالى ((... كأنّهم يوم يَرَون ما يُوعدون لم يلبثوا الاّ ساعة من نهارٍ) الأحقاف : 35) : ((خص النهار لأن الليل أبداً موصوف بالطول فساعاته أيضاً كذلك والنهار يقصر لوقوع التشاغل فيه . والغرض انما هو هنا تقليل مدة اللّبْث عندهم)) (الخاطِريّات ص 47) ومنه أيضاً قوله في مجيء (السموات) و (الأرض) في القرآن الكريم : ((جاءت السموات)) في القرآن تارة مجموعة واخرى مفردة ، ولم تجيء الأرض الا مفردة . وينبغي – والله أعلم – أن يكون ذلك لأن السماء بعيدة عنا فلسنا نشاهد حالها فنعلم اتصال بعضها ببعض كاتصال أجزاء الأرض بعضها ببعض . الا ترى أن السهل والجبل والوادي والبحر والبر لا تجد شيئاً من أجزائه منفرداً عن صاحبه . ونحن نعلم هذا من حال السموات كما علمنا وتحققنا من حال الأرض ، فلاق بالأرض أن تأتي بلفظ الافراد ولاق بالسماء أن تأتي – لما ذكرنا – بلفظ الجمع تارة وبلفظ الإفراد اخرى ..)) .

4- تخصيص المعنى من مظاهر التغير الدلالي الذي يطرأ على معاني الألفاظ ويحولها من عموم الدلالة الى خصوصها . وفي الألفاظ الاسلامية دليل واضح جلي على هذا الضرب من المعاني ، فألفاظ الصلاة والصيام والزكاة والحج .. الخ تخصصت معانيها بالفريضة الشرعية .

وورد في الخاطريات (ص 52) من هذا السبيل القران بين (الحسب) و (الكعبـة) على ما ذهـب اليه أبن جـني في الجمـع بينهما قائلاً : ((.. والجامع بينه (أي الحسب وهو ما يعده الانسان من فعاله وأخلاقه ومناقي أجداده) وبين الكعبة أن الحسب يأتي على الحسن والقبيح جميعاً ثم اشتق من الأصل في أشرف موضعيه وهو الحسن ، كما أن (الكعبة) : البيوت تكون شريفة ووضيعة ثم تقصر على بيت الله تعالى ثم ذكر (الكلام) و (الفقه) و (الخُلُق) على هذا المذهب أيضاً فقال ((... ومثله (الكلام) لما كان النظر أشرفه خُصَّ به أكرم ذلك وهو الجدل و (كالفقه) هو علم المعلومات على اختلافها ثم خص به معرفة الحلال والحرام ... ومثله : لفلان خلق اذا كان كريم الخُلُق وان كان أصل الخلق حاملاً للكريم واللئيم)) .

5- ترتبط الكلمات فيما بينها في تراكيب الجمل بمعان ليست سياقية وإنما معان وظيفية تبين العلاقات النحوية بين الكلمات كالفاعلية والمفعولية والحالية والاسناد ... الخ وتشترك مثل هذه المعاني مع المعاني السياقية في تبيان الدلالة اللغوية التركيبية ، فالدلالة وفاقاً لهذا المفهوم لا تعنى بالمعاني المفردة والدلالة السياقية حسب وانما تُعنى أيضاً بالمعاني الوظيفية للكلمات في الجمل .

وفي العربية معانٍ نحوية معروفة تندرج تحت ما يسمى بالأبواب النحوية منها التوكيد وهو لفظي بتكرير اللفظ ومعنوي بألفاظ مخصوصة كالنفس والعين وكلا كلتا كما هو مبين في كتب النحو . وقد يدل على التوكيد ما هو خارج عن هذين القسمين بافادة الكلام

مثل هذا التوكيد فيرد في غير المعاني النحوية بألفاظها المخصوصة، ومما ورد من ذلك في الخاطريات (ص 37) قول أبن جني : قوله عز وجهه (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) (المؤمنون : 15) كقوله سبحانه (ولا طائر يطير بجناحيه) (الأنعام : 38) ممن ذهب الى أن ذكره طيرانه بجناحيه توكيد ، والجمع بينهما أن اللام في قوله (لميتون) توكيد وهذا مما لا ارتياب به فيحتاج الى توكيد فكذلك قوله (يطير بجناحيه) توكيد عند اكثر الناس .

ومن الدلالات المستفادة من تركيب الجملة دلالة الإسناد وعدمه في غير المعنى النحوي ، ومثّل لهما أبن جني في قوله تعالى من سورة طه (آية 65) ((قالوا ياموسى إما أن تُلقي وإما أن نكون أوّلَ من ألقى)) . قال : ((لو قيل : فهَلاّ قال: إما أن تُلقي وإما أن نُلْقي ، وما معنى هذا التطاول وبعد المآخذ ؟ قيل فيه جوابان : أحدهما لفظي، والآخر معنوي ... والآخر هو أعلاهما و أصنعهما :

وهو أن الله تعالى أراد أن يخبر عن قوة بأس السَّحَرَة واستطالتهم عند أنفهم على موسى عليه السلام فجاء باللفظ عنهم أتم وأدق منه في إسنادهم الفعل اليه ، وهذا مثل قولك في الوعد : (والله لإن أسات لترينّ مني ما يسوؤك) فتضع هذا موضع قولك : لأُسيئنّ اليك .. (الخاطريات: ص 119) .

في القرآن الكريم والكتاب المقدس ألفاظ ما وراء الطبيعة[21]

بقلم : فلاح المرسومي - بغداد

في القرآن الكريم وفي الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ألفاظ يمكن تصنيفها على أنها ألفاظ ذات مدلولات تتجاوز الطبيعة الى ما يعرف بـ (ما وراء الطبيعة) والتي يقصد بها هنا المعاني العقلية والتصورية لجملة من القضايا التي تعبر عما وراء عالم المادة الدنيوي أو عالم المعنى الدنيوي بغض النظر عن معانيها الحسية أو معانيها العقلية والروحية بحسب التصور الديني ، وقد ترتبط بعض هذه الألفاظ بعالم الطبيعة وتكون لها صلة بعالم ما وراء الطبيعة : كالروح والنفس والوحي والالهام ، وأن تصنيفاً لتلك الألفاظ يظهر أن هناك علاقة وشيجة بين كثير من المفاهيم العامة فضلاً عن بعض الخصائص بين مجموعات الألفاظ في القرآن الكريم مقارنة بما هو وارد في الكتاب المقدس وفيها من المشتركات في الديانات السماوية في البعض منها الغيبية المتصلة بما وراء الطبيعة، كمسألة : القيامة ، والبعث ، والنشور والعقاب والثواب، والجنة والنار، وقد صنفت هذه الألفاظ على وفق دلالاتها التي جاء بها كتاب ألفاظ ما وراء الطبيعة في القرآن الكريم والكتاب المقدس لمؤلفه الاستاذ الدكتور علي زوين ومن هذه الدلالات الألفاظ المختصة بـ (ما بعد الموت)، وبالملائكة وبالنار وما يتعلق بها، وبالجنة وما يتعلق بها، وبالسحر والجن والشياطين، والألفاظ المختصة باللوح المحفوظ

---

[21] جريدة الزمان (2014 م) .

والكرسي والعرش ، وبالروح والوحي والالهام ، فالألفاظ المختصة بـ (ما بعد الموت) والقيامة والبعث وما يتعلق بها ذكر : البرزخ التي وردت في قوله تعالى (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) وبدلالة اللغة العربية يعني البرزخ هو الحاجز بين شيئين وقال في معناه الكثير من العلماء ((من مات فقد دخل البرزخ)) كما في الآية المذكورة أي الحاجز بينهم وبين الرجعة الى الدنيا باق الى يوم القيامة ، كما يأتي الباحث على معناها في لغات أقوام أخرى ، وكلمات متطابقة أخرى مثل الصور والناقور وهو على قول الطبرسي الناقور : الصور الذي هو على هيئة البوق الذي ينفخ فيه الملك يوم القيامة كقوله تعالى ((واذا نقر في الناقور)) ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض)) وآيات أخر وتعني قيام الساعة بعث الخلق وجمعه ولفظ (الناقور) مشترك بمعانيه في اللغات السامية ، وكذلك ألفاظ (الصيحة) أي رفع الصوت بمعنى النفخ في الصور كما في قوله تعالى ((إن كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون)) و ((يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج))، والراجفة والرادفة كما في الآية ((يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة)) الراجفة هي النفخة الأولى في الصور ويموت فيها جميع الخلائق ، أما الرادفة فهي النفخة الثانية التي تعقب النفخة الأولى وهي التي يبعث معها الخلق . إن الأموات يقومون (عديمي الفساد) أي بأجساد صحيحة كما كانوا في الحياة الدنيا ، وفي ذلك دلالة على تطابق العقيدتين الاسلامية والمسيحية في البعث الجسدي والروحي معاً في صيحة البوق الثانية الذي ينفخ فيه الملك ، والميزان ، والذي يعني وزن أعمال الناس يوم القيامة فيثاب الانسان أو

يعاقب على قدر أعماله في الدنيا ، ولفظة الموازين ، كما في الآية ((ونضع الموازين القسط يوم القيامة)) و ((فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون)) ، وما يتعلق بأسماء وصفات يوم القيامة ، فقد ذكرت في آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم : موت ، بعث ، حساب ، فزع : وتعني قيام البشر من قبورهم وبعثهم من جديد وهو الخلق الثاني أي النشور (الحياة بعد الموت) ويعبر أيضاً بالآخرة، ودار الآخرة، والدار الآخرة، واليوم الآخر عن النشأة الثانية أي يوم القيامة في مقابل (الدار الدنيا) وهي الخلق الأول . ومن ألفاظ القيامة البعث ، ويوم البعث ، ومن آيات الدلالة الآية ((قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا)) و ((إن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث من في القبور)) ((والسلام علي يوم ولدّت ويوم أموت ويوم أبعث حياً)) وآيات اخرى كثر عن هذا اللفظ ، ويأتي بلفظ يوم الدين ، كما في الآية ((مالك يوم الدين)) ، ويوم الجمع ، ويوم التغابن ، كما في قوله تعالى ((يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن)) ، ويوم التنادي في الآية ((يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد)) ، ويوم الحسرة ، سمي لشدة الندم لأن الناس يرون نتائج أعمالهم كما في الآية ((وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون)) ويوم الحساب كما في قوله تعالى ((وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب)) و ((ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)) وسمي يوم التلاقي ، كما في الآية ((يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق)) ويقول المفسرون سمي يوم التلاقي بهذا لأن فيه التقاء من تقدم وتأخر ، والتقاء أهل السماء وأهل الأرض ، ولملاقاة كل واحد

بعمله الذي قدمه ، وللقاء الله سبحانه بعباده ، كما ويطلق لفظ يوم الفصل على يوم القيامة لأنه يفصل فيه بين الحق والباطل أو يفصل بين الناس بالحكم ((هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين)) أما لفظ (الساعة) ، فقد ورد في أربعين آية منها ((وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور)) و ((إن الساعة آتية فأصفح الصفح الجميل))، وملحوظة أن الساعة جاءت للدلالة على يوم القيامة كلها معرفة بألف ولام ، وتذكر ((بالنبأ العظيم)) ، كقوله تعالى ((قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون)) و ((عم يتساءلون عن النبأ العظيم)) ووردت بلفظ القارعة وهي في اللغة : النازلة الشديدة تنزل عليهم بأمر عظيم : كما في الآية (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة)) وأنها تقرع الناس بأهوالها وشدائدها وكذلك بلفظ الأزِفَة : يوم الأزِفَة ، وردت بالآية ((وأنذرهم يوم الأزِفَة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين)) ووردت بالغاشية ((هل أتاك حديث الغاشية)) أي النائبة الكبرى التي تغشي الناس ، والواقعة كما في قوله تعالى ((اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة)) وأصلها الحدث الجلل الأمر الشديد ، وجاءت بلفظ ((الصاخّة)) ((فاذا جاءت الصاخّة يوم يفر المرء من أخيه)) لآن فيها صيحة شديدة ، وسميت القيامة بالطامّة ((لهولها)) ((فاذا جاءت الطامّة الكبرى يوم يتذكر الانسان ما سعى)) .. أما ذكرها في الكتاب المقدس فالمسألة مختلفة بين عهديه القديم والجديد ، فالعقيدة المسيحية مؤمنة بالقيامة التي يطلق عليها (يوم الدينونة) وبمبدأ العقاب والثواب الالهيين في الدنيا والآخرة والجنة والنار والحساب والكتاب ... الخ وعبارة (يوم دينونة الله) في قول السيد المسيح (ع) الحق أقول لكم : أن يوم دينونة الله

سيكون رهيباً ، إن المطلع على مجمل عقائد اليهود يجدهم يميلون كل الميل الى الأعمال ولا يعنون كثيراً بـ (الايمان) على خلاف النصرانية التي اهتمت بالايمان أكثر من اهتمامها بالأعمال ، وكان شعارها أترك ما لله لله وما لقيصر لقيصر، وفصلت بذلك ((ملكوت الله)) عن ((ملكوت الانسان)) ولما اتسمت به اليهودية من ترجيح كفة العمل على كفة الايمان صار دينها : اسلوب حياة لا اسلوب عقيدة تعتقد ، وتبعاً لذلك لم تعن كثيراً بالحديث عن الآخرة : البعث والحساب والعقاب والثواب بالدنيا لا بالآخرة وقد ذهب بعض الباحثين في العقائد اليهودية الى أن اليهود أخذوا عن الزرادشتية الاعتقاد بحياة اخرى بعد الموت ومبدأ العقاب والثواب والجنة والنار ويفترض على صحة هذه الدعوى أن ذلك حصل بعد السبي الى بلاد بابل ، لأن بابل سقطت بيد الفرس الأخمينيين وأطلق سراح اليهود وامتد نفوذ الامبراطورية الأخمينية غرباً حتى شمل فلسطين ، ومثل هذا الزعم يحتاج الى دليل ، كما واننا نجد عقيدة (المعاد) في نصوص كثيرة من العهد الجديد خلاف ما كان في العهد القديم .

وفي جانب آخر من الكتاب جاء على الألفاظ المختصة بالملائكة التي جاءت بالقرآن (ملك) وبصيغ متعددة مفرد اثني عشر مرة ، ومثنى في آيتين في حين وردت بصيغة الجمع في ثلاث وسبعين آية ، منها ((وقالوا لو أنزل عليه ملك)) و ((اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين))، والملائكة في الروايات الاسلامية مخلوقات نورانية بخلاف الجن فهم مخلوقات نارية والأصل في (الملك) الرسالة ولكنه صار صفة غالبة على صنف من رسل الله غير البشر، وقد جاء المؤلف على كثير من ترابط اللفظ ومنها في العقائد اليهودية والنصرانية، وعن (الروح، وروح القدس،

والروح الأمين) وذكر أسماء الملائكة وسيد الملائكة وصاحب الوحي في الروايات الاسلامية (جبرائيل) حيث قول الله ((قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزَّلَه على قلبك بأذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدىً وبشرى للمؤمنين)) وذكر الكتاب المقدس (جبرائيل) بمعنى الملك الذي بشر زكريا بولادة يحيى (ع) ومريم بولادة السيد المسيح (ع) وهو الذي أرسل الى النبي دانيال (ع) ليعلمه تفسير الرؤيا ، ولم يشر (لوقا) الى اسمه صراحة بل ذكره بعبارة (ملاك الرب) كما ورد في إنجيله عند بشارة الرب لزكريا بأبنه يحيى (عليهما السلام)، وجاء أيضاً على ملائكة الرب ووظائفهم وتحميدهم لله وتسبيحه، وكذلك على الملائكة الهابطين الى الأرض، وأسماء الملائكة العاصين، وجاء الكتاب على الألفاظ المختصة بالنار وما يتعلق بها للدلالة على نار الآخرة الذي يعذب بها العصاة والكافرون كقوله تعالى ((والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار)) وبآيات كثيرة، أما في سفر أخنوخ نصوص صريحة تدل على نار الآخرة منها قوله ((وفي يوم الدين العظيم يقاد الى أتون النار)) هذا وقد جاء القرآن على لفظة الجحيم بست وعشرين آية وهي من أسماء النار وسميت بالجحيم لشدة تأججها واضطرامها وكثرة جمرها وتوقدها ، ومن أسمائها : لظى ، سِجِّين ، هاوية، ومالك وهو خازن جهنم وعليها تسعة عشر من الملائكة كما في الآية ((لوَّاحة للبشر عليها تسعة عشر)) وطعام أصحاب النار في جهنم (غِسْلين، والزَّقّوم، والضريع) ، أما في ألفاظ الجنة وما يتعلق بها : فقد وردت في آيات كثيرة من الذكر الحكيم وهي تدل على النعيم في الآخرة لقوله تعالى ((فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)) ومن أسمائها

(جنة عدن ، جنة خُلْد ، جنة نعيم ، جنة اقامة ، جنة المأوى ، دار الخُلْد ، ودار السلام ، وفيها ما لذّ وما طاب من طعام وشراب ، الكوثر ، السلسبيل ، التسنيم ، وقال سبحانه ((الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)) وعن لفظ اللوح المحفوظ والكرسي والعرش ، وجاء اللفظ بالآية ((بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)) ولفظ (أم الكتاب) و (أمام) كما في الآية ((وكل شيء أحصيناه في إمام مُبيْن)) و الكرسي كقوله ((وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم)) و لفظ (العَرْش) منها في الآية ((فسبحان رب العرش العظيم)) وفي تفسير قوله تعالى ((ثم استوى على العرش)) معناه ثم استوى عليه بأن رفعه أو قصد الى خلقه ويعني استقر ملكه واستقام بعد خلق السموات والأرض ، فظهر ذلك للملائكة ، كما وان الكتاب قد جاء على ألفاظ السحر والجن والشياطين وجاءت بصيغ عديدة ومختلفة في كثير من آيات الذكر الحكيم ، وعن أبي الشياطين إبليس اللعين ، وفي الختام جاء على ذكر الألفاظ المختصة بالروح والنفس والالهام : كقوله تعالى ((ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً)) وعن النفس كقوله تعالى ((الله يتوفّى الأنفُس حين موتها والتي لم تمت في منامها)) أما في الكتاب المقدس فقد جاءت لفظة (الوحي) بمدلولات مختلفة وبمعنى مختلف مثل (النبوة المختصة بمدينة أو مملكة أو قوم) وفي (سفر الخروج 10:12) بمعنى (آية القوم) ، وعموم القصد عندهم الوحي هو (الالهام) .

كمال الانسان في القرآن[22]

(مقاربة فكرية)

يكمل الانسان على قدر طاقته وطبيعته التي اودعها الله فيه بالكمالات الإلهية . وهذه الكمالات نجد لها فيضاً من الآيات البينات في كتاب الله العزيز. وليس شأن الكمال مقولة أو حكمة أو مثلاً حسب وإنما منهاج للعمل ومراتب للسير والسلوك ، ومصاعب جمة في طريق الخروج الى الغاية التي خلق الله من أجلها الانسان وجعله خليفته في الأرض .

وللمتأمل في مجموع الآي يمكنه تقسيم هذا المبحث على محاور ، أهمها ما يأتي :

الأول : الانسان (عنوان للإبداع الخلقي) ، والثاني : الانسان والانسانية ، والثالث : الانسان وأصالة الخير وعوارض الشر ، الرابع : الانسان خليفة الله في الأرض .

الإنسان (عنوان للإبداع الخلقي)

الابداع الخلقي يشمل الجسدي والروحي ، أي القلب والقالب ، فحياة الأجساد بالأرواح ، وقد أبدع الخالق في المسارين معاً إذ قال (الذي أحسن كُلَّ شيءٍ خَلَقَه – السجدة : 7) ، أي احسن حلقه من جهة الحكمة ، فكل

---

[22] مجلة ن والقلم الصادرة عن الوقف الشيعي – سنة 2014 م .

شيء خلقه وأوجده فيه وجه من وجوه الحكمة تحسّنه – الطبرسي : 120/4)[23] . ويستدل بهذه الآية على ((أن الكفر والقبائح لا يجوز أن يكون من خلقه)) ، لأنه الخير المحض وكلمته الحكمة المطلقة ، ومنهما يفيض الخير وتفيض الحكمة على خلقه على قدر مراتبهم وجهدهم وسلوكهم وتلقفهم معانيها قولاً وعملاً سواء عن طريق العلم اللدنّي المختص بأنبيائه وأوليائه الصالحين أم عن طريق العلم الاكتسابي والمعرفة الانسانية . وشرط هذا الفيض أن يكون نوراً في البصيرة في أول تلقيه ، ثم يعالجه الانسان بما أوتي من قوى التعلم والعمل ليرسخ في نفسه ويكون كالنواة بين شقي التمرة لا تكتمل الا بهما ، ومنها سنخ النخلة ونباتها وإنباتها .

ويمكن أن تفهم النفس الواحدة التي ذكرها الله في القرآن الكريم على أنها (النفس الكلية) التي خلقت منها سائر النفوس ، كالعقل الكلي الذي خلقت منه سائر العقول . قال تعالى : (وهو الذي انشأكم من نفس واحدة فمُسْتقرٌّ ومستودع – الأنعام : 98) . وقال في سورة النساء : (يا أيها الناس أتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء – النساء : 1) ، ومثله قوله : (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها – الزمر :6) .

إن هذه الآيات شواهد بينة على أن النفس الواحدة لا يراد بها الجسد العنصري حسب كما ذهب الى تفسيرها أغلب المفسرين وقالوا إن المقصود

(23) مجمع البيان في تفسير القرآن – طبع مؤسسة الأعلمي – بيروت 2005 م .

بها آدم (ع) ، ولكن المراد بها على وجه النفس الكلية ، وفي هذا إشارة واضحة الى وحدة النفس والروح لأنهما بمثابة إحدى كفتي الميزان في مقابل الأخرى ، وهي وحدة البشر في أصل الوجود .

وفي القرآن الكريم آية ، وهي قوله تعالى : (وإذ أخذَ ربُّك من بني آدم من ظُهورهم ذرِّيتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربِّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين – الأعراف :172) . وتستفاد من هذه الآية أمور ، منها أن الايمان فطري مخلوق مع خلق الأرواح كما سنذكر ذلك في موضعه ، ومنها أصالة الخير في الروح الانساني ، ومنها ما نحن بصدده ، أي الإبداع الخلقي إذ جعل الله الأرواح البشرية بعد خلقها في ذرات تطابق أجسادها العنصرية قبل أن تلد في عالم الدنيا ، ولذلك كان من أوجه تفسير الآية المذكورة آنفاً ((أن الله تعالى أخرج ذرية من صلبه كهيئة الذر فعرضهم على آدم ، وقال : إني آخذ على ذريتك ميثاقهم أن يعبدوني ولا يشركوا بي شيئاً – الطبرسي : 390/4)) ، ولكن الآية لا تكتفي بهذا المدلول الحصري بآدم وإنما يمكن توجيهها لتشمل الخَلْق الرُّوحاني الانساني قبل آدم ، وهو ما يطلق عليه (عالم الذّرّ) . ومن معاني الذّر في العربية : ما يُرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة . الواحدة : ذرّة . وتلك الذرّات في عالم الذّر أشبه بما يرى في شعاع الشمس ، أي ذرات نورانية يأتلف بعضها مع من يأتلف ، ويختلف بعضها الآخر مع من يختلف . ويبقى هذا السلب والإيجاب كامناً في نفوس البشر بعد انتقالهم الى الجسد العنصري ، فالموجب يقترب من قرينه خلاف السالب .

الإنسان والإنسانية

الانسان في عالمه المادي مكافئ للإنسان في عالمه الروحي ، والانسانية مزيج من هذين ، واختلافها بقدر نسبها في سلوك الانسان ، فالخير والشر يتصارعان في هواه ، والعقل وقوى النور الروحانية الفطرية تُغلّب الخير الفطري على الشر المكتسب ، وينبغي للإنسان بحكم القرآن أن ينظر الى نظيره الانسان من خلال الانسانية الجامعة للسلوك الطبيعي الفطري ، فميزان التفاضل في القرآن بين الناس التقوى ، وهي كل ما تعنيه من عناصر الخير ، وليس الميزان العصبية والتعصب ، ونبه على ذلك جاعلاً تقسيم الناس على شعوبهم وقبائلهم للتعارف فيما بينهم ، ولذلك قال تعالى : (يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم – الحجرات : 13) . وروي عن النبي (ص) قوله : (إنّما أنتم من رجل وامرأة ... ليس لأحد فضل الا بالتقوى) ، وقيل في تفسير الآية : إنما فرّق أنساب الناس ليتعارفوا لا ليتفاخروا ، (وجعلناكم شعوباً وقبائل) ، هي جَمْع شَعْب وهو الحيّ العظيم ... وقبائل دون الشعوب (لتعارفوا) ، أي جعلناكم كذلك لتعارفوا ، فيعرف بعضكم بعضاً بنسبه وأبيه وقومه، و لولا ذلك لفسدت وخربت الدنيا ... (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، أي أكثركم ثواباً وأرفعكم منزلة عند الله أتقاكم لمعاصيه وأعملكم بطاعته – الطبرسي : 299/9 ، 230 .

وهذه الآية الشريفة دليل على تقسيم المجتمعات البشرية الى أمم وأقوام وشعوب لحكمة إلهية تجلت في اختلاف أجناس البشر واختلاف لغاتهم

لديمومة الحركة الاجتماعية للجنس البشري على مدى تاريخه سابقاً وحاضراً ولاحقاً .

وبيان الأمة الواحدة في البدء ثم اختلاف الناس بعد ذلك اتصل ذكره في القرآن الكريم كقوله تعالى : (كان الناس أمَّةً واحدة فبعثَ الله النبيين مُبشِّرين ومُنْذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقِّ ليَحْكُم بين الناس فيما اختلفوا فيه – البقرة : 213) ، وقوله تعالى : (وما كان الناس إلاّ أمَّةً واحدةً فاختلفوا – يونس : 19) .

ودرج المفسرون في معنى الآية على ما يمكن تسويغه في التفسير بالمأثور ، ومنه ما روي عن أبي جعفر الباقر (ع) أنه قال : (كانوا قبل نوح أمة واحدة على فطرة الله ، لا مهتدين ولا ضلالاً ، فبعث الله النبيين) ، قال الطبرسي (65/2) معلقاً على هذه الرواية : ((وعلى هذا فالمعنى أنهم كانوا متعبدين بما في عقولهم ، غير مهتدين الى نبوة ولا شريعة ، ثم بعث الله النبيين بالشرائع لما علم أن مصالحهم فيها)) .

ومثل هذا التفسير للآية يستلزم أن يكون الناس سواسية في إدراكهم العقلي ، وهو أمر لا يمكن تحصيله لتفاوت الناس في مداركهم ، وثمة مسألة أخرى ملزمة ايضاً وهي القول بخلو الفترة بين آدم ونوح من نبوات وشرائع ، خلاف المعروف المشهور من نبوة آدم وبعض أولاده وحفدته ، يضاف الى ذلك كله مبدأ الثواب والعقاب وعدم خلو البشرية من مبشرين ومنذرين ، وهو صريح ما جاء في القرآن في آيات عديدة .

والحق ان الآيتين المذكورتين آنفاً يمكن توجيههما على نحو يفهم منه توحد أغلبهم على غير شريعة لتقادم العهد بآدم ، لا توحدهم في عقائدهم كما يمكن أن يفهم من فحوى كلام الباقر (ع) ، أو توحدهم جميعاً على مبدأ الإلهية والربوبية للكون أو لما يحيط بهم من ظواهر الطبيعة على الفطرة ، على الرغم من اختلافهم بين إله واحد وعدة آلهة . وهذه من المسائل المعضلة من حيث التقصي والبحث في فجر النشأة البشرية على الأرض والعقائد الدينية البدائية الموغلة في القدم .

وقد أجمل القرآن الكريم علاقات الناس بعضهم ببعض في المسائل الكبرى الأساسية ، كالعدل والاحسان في قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعَدْل والإحسان – النحل : 90) ، ومفهوم العدل ((الإنصاف بين الخلق ، والتعامل بالإعتدال الذي ليس فيه ميل ولا عِوج)) ، وأما الاحسان فهو أن تحسن الى الناس بالتفضل ، ولفظ الإحسان جامع لكل خير ((كما قال الطبرسي (190/6) ، ويشمل ذلك كثيراً من شؤون الناس وشجونهم . قال تعالى : (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن – الإسراء : 53) ، أي ((يختاروا من المقالات والمذاهب المقالة التي هي أحسن المقالات والمذاهب – الطبرسي : 61/6.

والمقارنة بين (الحَسَنة) و (السيِّئة) هي من هذا القبيل ايضاً ، وقد قال تعالى : (ولا تستوي الحسنة ولا السَيِّئة إدْفَع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم * وما يُلقّاها الا الّذين صبروا وما يُلقّاها الاّ ذو حَظٍّ عظيم – فصلت : 34 ، 35) ، فالحسنة من الأعمال لا تستوي

مع السيئة وهي القبيح من الأفعال . وخاطب –عز وجل – نبيه الأكرم فقال له : (إدفع بالتي هي احسن) ، وهو خطاب يشمل المسلمين جميعاً ، وإذا أردت الناس جميعاً ، والمعنى : ((إدفع بحقك باطلهم وبحلمك جهلهم وبعفوك اساءتهم)) ،) فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم) أي ((إنك اذا دفعت خصومك بلين ورفق ومداراة صار عدوك الذي يعاديك في الدين وليك القريب ، وكأنه وليك في الدين وحميمك في النَّسَب)) . ويمكن أن تفهم الآية على أنها توجيه خلقي عملي للمسلمين ، لأن خصوص الخطاب لا يتعارض مع عموم التكليف ، ثم بين الله تعالى أن مثل هذا الخلق هو للأوحديّ من الناس الذي بلغ مرتبة السلوك الأرقى مع أخيه من سنخه وصنفه ، ولذلك قال : (وما يلقاها) ((أي ما يلقّى هذه الفعلة التي هي دفع السيئة بالحسنة (الا الذين صبروا) على كظم الغيظ واحتمال المكروه ... وما يلقّى هذه الخَصْلة المذكورة ولا يؤتاها (الاّ ذو حظ عظيم)، أي ذو نصيب وافر من الرأي والعقل – الطبرسي : 23/9 ، 24)) : فالتوازن بين الرأي والعقل هو تمام الحكمة الانسانية في شؤون الحياة ولا سيما مداراة الناس ، ولا يصل انسان الى هذا التوازن الاّ بعد لأيْ وجهد كبيرين بين ميزاني العدالة النفسية ، وأعني بها الإفراط والتفريط . وبحسب ذلك كله في عموم الصفة الانسانية للكائن الفرد باعتبار العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع ، ويدخل في معنى الخلق الجمعي للمجتمع الأُنموذجي .

ومما أوصى الله تعالى به في الإحسان (الإحسان) بالوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل والعبيد والإماء . وقد بين ذلك كله في قوله تعالى : (وإذ أخذنا

ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين – البقرة : 83) ، وقوله : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القُرْبى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنْب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم – النساء : 36) .

وفي معنى قوله تعالى (وقولوا للناس حُسْناً) روي عن ابن عباس (رض) قوله: هو القول الحَسَن الجميل ، والخُلُق الكريم ، وهو مما ارتضاه الله وأحبه . وروى جابر(رض) عن أبي جعفر الباقر (ع) أنه قال : ((قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم ، فإن الله يبغض اللَّعان السبّاب الطعّان على المؤمنين ، الفاحش السائل المُلْحف ويحب الحليم العفيف المُتعفّف – الطبرسي : 286/1)) .

ويستفاد من قوله تعالى : (وقولوا للناس حسناً) مطلق الناس ، المؤمن والكافر ، فالأمر متوجه به اليهم جميعاً .

(والجار ذي القُرْبى) ، أي (الجار القريب في النَّسَب ، والجار الذي ليس بينك وبينه قرابة) عن ابن عباس (رض) ، أو (الجار ذو القربى منك بالإسلام ، والجار المشرك البعيد في الدين) ، وروي عن النبي (ص) في هذا المعنى قوله : (الجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق : حق الجوار ، وحق القرابة ، وحق الاسلام . وجار له حقّان : حق الجوار وحق الاسلام ، وجار له حق الجِوار : المشرك من أهل الكتاب) .

(والصاحب بالجَنْب) أي الرفيق في السفر ، أو الزوجة ، أو المنقطع إليك يرجو نفعك ، أو الخادم الذي يخدمك والأفضل أن يراد به الجميع ، ولذلك قال الطبرسي : (والاولى حمله على الجميع) . و (ابن السبيل) : المسافر والضيف . (وما ملكت أيْمانُكم) : العبيد و الإماء . (الطبرسي : 82/3 ، 83) .

والكلمة الطيبة صدقة ، ولذلك فضل الله تعالى القول المعروف على الصدقة المقرونة بالمنّ والأذى ، فقال : (قولُ معروفُ ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذىً – البقرة : 263) .

ويتسع مفهوم العدل بين الناس ليشمل العدل الاجتماعي . ولا يقتصر ذلك على العدل في الحكم بين الناس . قال تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل – النساء : 58) ، وقال : (قل أمر ربي بالقسط – الأعراف : 29) ، أي بالعدل والاستقامة ، وقال : (ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى – المائدة : 8) . ومعنى الآية : لا يدخلنكم في الجرم ولا يحملنكم بغضكم إياهم على (أن لا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم فتجوروا عليهم) ، وأعدلوا لأن ذلك أقرب الى تقوى الله . (الطبرسي : 291/3 ، 292) .

ومن معاني العدل أيضاً العدل في القول ، قال الله تعالى : (وإذا قلتم فأعدلوا ولو كان ذا قربى – الأنعام : 152) .

ومن فضل الله تعالى على الناس أن بعث فيهم رسولاً ليّن القلب حليماً للدعوة الى دينه ، فقال الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم (فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فَظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر – آل عمران : 159) .

والفظ الغليظ : الجافي القاسي القلب ، والفظاظة : خشونة الكلام – الطبرسي :426/2 . والآية وإن كانت خطاباً للرسول الكريم غير أنها تعم المسلمين في شؤون الدعوة الى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويمكن توجيهها الى شؤون الناس جميعاً في روابطهم الاجتماعية المختلفة . وقد قدّر الله للداعي الأمثل ثلاث صفات : العفو عمّن أساء ، والدعاء لله ، ومشاورة الناس في أمورهم وأحوالهم مما هو غير مشرّع .

ويعد قتل النفس بغير حق من أكبر الجرائم البشرية ، وقد شبّه الله تعالى قتلها بقتل الناس جميعاً فقال : (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنّه من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً – المائدة :32) .

والانفاق في السرّاء والضرّاء وكظم الغيظ والعفو عن الناس من دلائل الخير والصلاح والإصلاح في المجتمع الانساني . قال تعالى : الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيض والعافين عن الناس والله يحب المحسنين – آل عمران : 134) .

والانفاق في السرّاء والضرّاء من صفة المتّقين ، ومعناه في حال كثرة المال وقلّته ، أو حال السرور والاغتمام ، اي لا يقطعهم شيء من ذلك عن إنفاق المال في وجوه البرّ . وأمّا (الكاظمين الغيظ) فهم المتجرّعون للغيظ عند إمتلاك نفوسهم فلا ينتقمون ممن يدخل عليهم الضرر بل يصبرون على ذلك ، (والعافين عن الناس) يعني الصافحين عن الناس المتجاوزين عمّا يجوز العفو والتجاوز عنه مما لا يؤدي الى الإخلال بحق الله تعالى . وصفتا الكظم والعفو من أعظم الصفات النفسية الجميلة للإنسان الكامل لأنهما كبح لمشاعر النفس الأمّارة بالنفس الآمنة المطمئنّة ، وفيها قوة إحلال السلام والوئام في المجتمع الإنساني .

ومعنى قوله تعالى (والله يُحبُّ المحسنين)، أي من فعل ذلك فهو مُحْسن، والله يحبه بإيجاب الثواب له . قال الطبرسي (ويحتمل أن يكون الإحسان شرطاً مضموماً الى هذه الشروط ، أي الى هذه الصفات المذكورة آنفاً . ولا ينبغي أن يفهم الاحسان – ها هنا – الى من أحسن اليك لأنه تجارة ومبايعة سلعة بسلعة ، وإنما الاحسان المطلوب أن تحسن الى من أساء اليك ، ولذلك نقل عن الصوفي سفيان الثوري قوله : (الاحسان أن تحسن الى من أساء اليك فأما من أحسن اليك فإنه متاجرة كنقد السوق ، خُذْ مني وهات) – الطبرسي : 392/2 .

وقد يتجاوز الله تعالى عن حقه رحمة منه بالعباد ولطفاً وإحساناً ، ولكنه لا يتجاوز عن حقوق الناس ولا سيما الأموال ، وقد أوجب الله تعالى في أموال ذوي اليسار حقاً للسائل والمحروم ، فقال : (والّذين في أموالهم حق

معلوم * للسائل والمحروم – المعارج : 24 ، 25) . والحق هذا ليس حق الزكاة والصدقات ونحوهما مما أوجبه الله فريضة على كل مسلم ، وإنما هو اخراج من فضلة ما عندك تطوعاً ، ويروى عن أبي عبد الله الصادق (ع) في هذا المعنى قوله : (الحق المعلوم ليس الزكاة ، وهو الشيء تخرجه من مالك إن شئت كل جمعة ، وإن شئت كل يوم ، ولكل ذي فضل فضله .

وللحق معنى أكثر اتساعاً وشمولاً ، فقد روي عن الصادق (ع) أيضاً أنه قال : (هو أن تصل القرابة ، وتعطي من حرمك ، وتتصدق على من عاداك – الطبرسي : 125/10) .

وجعل الله تعالى من آياته الزواج بين الرجل والمرأة حفظاً للجنس البشري ، وربط بين الزوج وزوجته برباط الألفة والمحبة والمودة لأنهما عماد العائلة ، والعائلة عماد المجتمع ، فقال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون – الروم : 21) ، أي جعل لكم من شكل أنفسكم ومن جنسكم أزواجاً لتطمئنّوا اليها وتألفوا بها ويستأنس بعضكم ببعض ، وجعل بين المرء وزوجه مودة أي محبة ، ورحمة أي شفقة . وتستفاد من هذه الآية المباركة أمور ، منها :

1- التشاكل النفسي بين جنسي الخليقة البشرية أي الذكر والأنثى لحفظها من الاندثار .
2- الرجل والمرأة يمثلان أساس المجتمع ، فالمودة بينهما والرحمة من العناصر المهمة في المجتمع البشري .

3- إن المودة والرحمة بين الجنسين أو الزوجين من القضايا الفطرية التي جبلها الله تعالى في نفوس الرجال والنساء . وعقد الزواج بينهما يفترض أن يكون عقداً بين المحبة والرحمة بينهما فضلاً عن العلاقة الجسدية لحفظ النسل .

ونبه الله تعالى في محكم كتابه على أمور قد تبدو لبعض الناس أنها من الصغائر ، ولكنها تقدح في العلاقات الاجتماعية المبنية على المحبة والتسامح ، منها : نبذ السخرية والتنابز بالألقاب كما ورد في قوله تعالى : (يا أيّها الّذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ولا تلْمَزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب – الحجرات : 11) .

ومنها أيضاً كما ورد على لسان لقمان الحكيم مخاطباً ابنه : التكبر على الناس والاستخفاف بهم ، والفخر ، والاختيال ، والجهر بالصوت ورفعه في التخاطب بين الناس ، وعدم القصد في المشي ، أي العجلة ، وعدم التوسط فيه بين المستعجل والمتباطئ ، فقال : (وأقصِدْ في مَشْيك وأغضُضْ من صوتك إنّ أنكر الأصوات لَصَوتُ الحمير – لقمان : 19) .

الإنسان وأصالة الخير وعوارض الشر

الإنسان تبع لفطرته في الخلق . لما دلّ قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذُرِّيَتهم ... الخ الآية) على أن التوحيد والإقرار بالربوبية لله فطرة مع خلق الأرواح قبل خلق الأجساد كما ذكرنا ذلك سابقاً أمكن الاستدلال أيضاً بهذه الآية على أصالة الخير في الطبيعة النفسية والوجدانية عند الإنسان في أصل النشأة ، لأن الاقرار بالتوحيد والربوبية يستدعي التمثل لهما باكتساب الصفة المؤهلة للتوحيد ، وهي صفة أصيلة وليست عارضة ، بمعنى التلازم بين اعتقاد التوحيد وما يترتب عليه من خير ، لأن منبعه الله تعالى وهو الخير المطلق . وأما الشر فعارض يكتسبه الانسان بعد ولوجه في عالم الاجساد وبلوغه عمر التعقل بالمشاهدة والاستنتاج ، فتعمل النفس الأمّارة عملها ، فالخير لذلك أصيل فطري عند الانسان وهو في عالم الأرواح، والشر عارض يعرض له في عالم الاجساد . وبمقدار الصراع بين الخير والشر في النفس الانسانية يكتسب الانسان صفات سلوكه الدنيوي ، وله أن يتحكم في أفعاله لمقدرة الطاقة العقلية في التمييز . وقد ندب القرآن الكريم الى الصالحات من الأعمال وحث على الإحسان والصبر ودرء السيئة بالحسنة في كثير من آي الذكر الحكيم ، منها الآيات الآتية :

- (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريّة – البينة : 7) .
- (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين – البقرة : 195) .
- (إدْفَعْ بالتي هي احسن السيئة – المؤمنون : 96) .

- (أولئك يؤتَوْن أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة – القصص : 54) .
- (إدفع بالتي هي أحسن فإذا الّذي بينك وبينه عداوة كأنّه وَلِيٌّ حميم – فصّلت : 34) .

والشر في الأرض قديم قبل خلق آخر سلالة بشرية ، أي قبل خلق آدم ، وقد بين الله تعالى ذلك في قوله : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون – البقرة : 30) . ومعنى الآية بحسب ما ورد في بعض أوجه تفسيرها أن المعني بالخليفة هم (ولد آدم يخلف بعضهم بعضاً) ، فقال الملائكة سائلين مستفهمين (أتجعل فيها من يفسد فيها) بالكفر والمعاصي (ويسفك الدماء) بغير حق (ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك) أي فنحن على ما نظنه ويظهر لنا من الأمر أولى بالخلافة في الأرض لأنّا نطيع وغيرنا يعصي ، فأجابهم الله تعالى : (إنّي أعلم ما لا تعلمون) أي أعلم من مصالح المكلفين ما لا تعلمونه وما يكون مخالفاً لما تظنونه على ظواهر الأمور – الطبرسي : 148/1) . ولذلك يستفاد من الآية المذكورة آنفاً أنّ الإفساد في الأرض وسفك الدماء فيها كان مفهوماً لدى الملائكة قبل خلق آدم (ع) .

وعرض القرآن الكريم لكثير من الصفات السيئة في الانسان وهي عوارض الشر المكتسبة في عالم المادة ، منها قوله تعالى : (خلق الانسان

من عجل – الانبياء :37) ، أي خلق الانسان على حب العجلة في أمره – الطبرسي : 87/7 .

وقوله : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير إطمأنّ به وإن أصابته فتنة إنقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين – الحج : 11) ، ومعنى عبادة الله على حرف عبادته على ضعف وشَكٍّ بلسانه دون قلبه . قال الطبرسي في معنى العبادة على حرف : على ضعف في العبادة كضعف القائم على حرف ، أي طرف حبل ونحوه ، وذلك من إضطرابه في طريق العلم إذا لم يتمكن من الدلائل المؤدية الى الحق فينقاد لأدنى شبهة لا يمكنه حلّها . وهذه الصفة مفتاح الشر كله لأن الشك وعدم التثبت يوقع الانسان في الهلاك فيتخبط في شؤون دينه ودنياه ويفسد على نفسه العقيدة الصحيحة القويمة، وإذا رسخ الشك في نفس الانسان ظهرت له عوارض الشر وعمل من غير رادع ما توسوس به نفسه الأمّارة وتمكن منه الشيطان واستقر في قلبه ، ولذلك قيل في الدعاء المأثور : أللهم أرنا الحق حقّاً فنتبعه وأرنا الباطل باطلاً فنتجنَّبه ولا تجعله متشابهاً علينا .

ومن الآيات قوله تعالى : (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلمّا نجّاهم الى البر اذا هم يشركون – العنكبوت : 65) . وهذه الآية جرت مجرى الأمثال . والمعنى المستفاد منها صفة الانسان المنافق في عقيدته الذي يدعو الله مخلصاً في شدته ومحنته فإذا فرّج عنه انقلب على عقبيه ونسي الله وأشرك به . وقريب من معناها قوله تعالى : (وإذا أذقنا

الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون – الروم : 36) ، أي ييأسون من رحمة الله – الطبرسي : 63/8.

ومن الآيات الدالة على طبيعة الانسان في العجلة والجزع والضجر والحرص والضعف ، وهي من الصفات المكتسبة ، قوله تعالى : (إنّ الانسان خلق هلوعاً * إذا مسّه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً – المعارج : 19 ، 20 ، 21) . ومعنى (خلق هلوعاً ، أي ضجوراً شحيحاً جزوعاً من الهلع ، وهو شدة الحرص ، و (اذا مَسَّهُ الشّرُ جزوعاً) ، اذا اصابه الفقر لا يحتسب ولا يصبر . واذا أصابه الغنى منعه من البِرّ – الطبرسي : 124/10 .

وقوله تعالى : (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولاً – الاسراء: 11) . والمعنى (أن الانسان قد يطلب الشر لاستعجاله المنفعة – الطبرسي : 227/6) .

وقوله تعالى : (واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسّه الشرّ كان يئوساً – الاسراء : 83) .

ومن الآيات التي ذهبت مذهب الامثال في هذا المعنى كآية الفُلْك المذكورة سابقاً قوله تعالى : (وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون الاّ إيّاه فلمّا نجّاكم الى البرّ أعرضتم وكان الانسان كفوراً – الاسراء:67) ، وقوله : (ضل من تدعون الاّ إيّاه) ، أي (ذهب عنكم ذكر كل معبود الا الله – الطبرسي : 6 / 271 .

ومن الآيات الدالة على ضعف الانسان قوله تعالى : (وخلق الانسان ضعيفاً- النساء : 28) أي يستميله هواه وشهوته ، ويستشيطه خوفه وحزنه – الطبرسي : 67/3).

الانسان خليفة اللّه في الأرض

جمع الله تعالى صفات الانسان الكامل وما ينبغي له أن يكون عليه والغرض من خلقه في معنى الخلافة الأرضية التي ورد ذكرها في عدد من الآيات كقوله تعالى : (وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة – البقرة : 30) ، وقوله : (وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض – الأنعام : 165) ، وقوله : (وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قَبْلِهم – النور : 55).

ومن أوجه تفسير قوله تعالى : (إنّي جاعل في الأرض خليفة) أي جاعل في الأرض من ينوب عن الله تعالى في إجراء أحكامه وتنفيذ إرادته في عمارة الكون وسياسته – الطبرسي : 148/1 . ويقتضي مثل هذا المعنى أن يتوسع فيه لتشمل النيابة التخلّق بالأخلاق الإلهية في مراحل السير والسلوك ليصل الانسان الى مرحلة الكمال المنشود ، واذا تحقق هذا الأمر استحق الانسان أن يكون خليفة الله في الأرض ، لأنه حمل أمانة عظيمة كما جاء في قوله تعالى : : (إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يحملنها وأشْفَقْنَ منها وحملها الانسان إنه كان ظلُوماً جهولاً- الأحزاب : 72) . والأمانة المعروضة على الانسان في هذه الآية هي

الطاعة التي يستحق بها الثواب الدنيوي والأخروي ، والطاعة جماع الأعمال الصالحة نيّة وقولاً وعملاً ، ولا تتحقق الا بعد تحقق الخلافة الأرضية للأفراد قبل تحقق الخلافة الجمعية للمجتمعات البشرية المثلى بعد سير طويل للبشرية وغربلة وتهذيب لإختيار الأمثل والأفضل .

ومن أعلى مراتب الطاعة أن يبيع الانسان نفسه ويبذلها في سبيل الله ، وقد ورد في هذا المعنى في قوله تعالى : (ومن الناس من يشري نفسه من إبتغاء مرضاة الله والله رؤف بالعباد – البقرة : 207) .

وفعل الخير مطلق مقرون بالركوع والسجود والعبادة كما قال تعالى : (يا أيّها الذين آمنوا إركعوا وأسجدوا وأعبدوا ربكم وأفعلوا الخير لعلكم تفلحون – الحج : 77). والعمل الصالح أي التخلق بالأخلاق الإلهية يضمن للانسان – فضلاً عن كماله المرجو من خلقه – حياة طيبة وأحسن الجزاء في الدارين . قال الله تعالى : (من عَمِل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينّهم بأحسن ما كانوا يعملون – النحل : 97) .